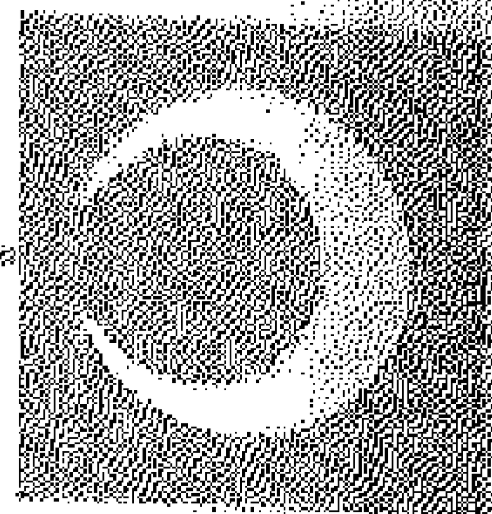
كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

الصعود إلى الهاوية

٦٠٨

صالح مرسي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٠٨ ـ شعبان ١٣٩٦ ـ اغسطس ١٩٧٦

No. 308 - August 1976.

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنــان عفت حسنى

صالح مرسى

الصعود إلى الهاوية

دار الهلال

كلمـــة ..

كانت البداية غريبة .. ولأنها غريبة . فانى أحب أن أحكيها للناس .

... فعندما طلب منى « صوت العرب » فى مطلع هذا العـام ـ ١٩٧٥ ـ أن أكتب مسلسلة عن الجاسوسية ، بدا لى الأمر مثيرا بعض الشيء ، وعندما قرات قصة ذلك الجاسوس الذى كنت بصـــدد الكتابة عنه ، ازداد الأمر اثارة .. ذلك انى كنت أعرفه ـ فى فترة من الزمان ـ معرفة عابرة .. غأ انى عندما بدات الكتابة ، طلبوا منى أن أقابل « السيد عمر » !

ولم يكن هناك بد من لقاء « السيد عمر » هذا فهو ضابط مخـــابرات ، ان تكنيك المخابرات شيء مجهول بالنسبة الى ، وانا وان كنت فى حاجة الى أن أعرفه ، فلقد أصبحت أمام مسئولية اذاعة الحلقات . أمام طريق مسدود .. وفى أحدى غرف مبنى الاذاعة والتليفزيون التقيت بالسيد عمر .

منذ اللحظة الاولى .. كان اللقاء مثيرا .

بأدب شديد ، قلت للرجل الفارع الطول ، الأسمر ، الحاد النظرات :

« بصراحة أنا جاى غصب عنى ؟ »

بدت الدهشة فى عينيه . وعلى شفتيه الحـــازمتين ارتسمت ابتسامة ، قال :

« ليه ؟ » ..

وقلت .. قلت كل شيء .. قلت كل ما يمكن أن يقوله انسان سمع عن جهاز المخابرات العامة أساطير كثيرة .

غير أن الحديث بيننا امتد يومها الى أربع ساعات كاملة .. نحينا حلقات المسلسلة جانبا وبدأت أسأل ، وبدأ يجيب .. ولم تكن الساعات الأربع كافية لأن أعرف كل شيء .. ذلك أنى كنت أكتشف . كلما مضت دقيقة ، أنى « جاهل » .. أقولها بملء فمى لأنها الحقيقة .. كنت جاهلا بكل شيء عن هؤلاء الرجال الذين لا ينطقون لأن طبيعة عملهم هى السرية والـــكتمان ، كنت جاهلا بأسلوب المخابرات لانه أسلوب يختلف اختلافا كليا عن الاسلوب البوليسى الذى نتبعـــه عادة فى كتابة القصص البوليسية . كنت جاهلا بحقائق كانت تبدو لى بديهيات لا تحتاج الى مناقشة .. و ..

وامتد الحوار بيننا ــ السيد عمر وأنا ــ لخمسة عشر يوما لم أكتب فيها كلمة .. خمسة عشر يوما كنت أتعثر فيها كطفل يتعلم السير .. ويوم أن دعيت لزيارته هناك. فى هذا المبنى القابع خلف أسوار الصمت ، أحسست انى أدخل مدرسة جديدة ، اتعلم فيها شيئا جديدا .. هناك قدم لى « السيد عمر » كل ما أريد من حقائق .. ولقد أصبح السيد عمر صديقى ، ولقد أحببته . والأهم من هذا ، انى تعلمت منه الكثير .

ثم ...

ثم طلبت منه أن أكتب للمصور بعض قصص هـؤلاء الرجال الذين يحمون ظهر مصر ، الذين لا ينامون ..

حتى ننام نحن .. الذين يواجهون أعتى العقول فى العالم وأشدها دهاء ليحافظوا على كيان هذا الوطن .. ومنذ ستة أشهر ، وأنا أعكف على عدد لا بأس به من الوثائق ، أتعلم ، أدرس ، وأكتب هذه الحقـــائق ، التى لا تحمل سوى رسالة واحدة .. ماذا لو غفل هؤلاء الرجال عنا ؟!

وسقط القناع
عن وجه الغريب

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا .. وكان الطريق الطويل المحاذى لقصر القبة يبدو خاليا الا من سيارة تسير هنا أو هناك .. ثمة جو يخيم على البلد كلها ، وهزيمة يونيو لم تطو بعد عامها الاول .. وفى مكان خال من المبانى ، توقفت سيارة تحمل أرقام أجرة القاهرة .. ونظر السائق الى راكبه الغريب وهو يمسح المكان بعينيه فى دهشة .. الى أين يذهب هذا الراكب ذو الجسد المدكوك والوجه المكتنز والعينان اللامعتان ، غير أنه تناول أجره ومضى تاركا ذلك الشاب يقف وسط الشارع وحده .. وراح صاحبنا بعد أن مضت السيارة وابتعدت يمسح الطريق بعينيه يمنة ويسرى .. كان يرتدى بذلة كاملة والجو ربيعى بارد ، وعيناه تمدان أذرع البصر الى ذلك المبنى القابع خلف أسوار الصمت .. كان هذا المبنى بالذات هو وجهته .. وكان قبل أن يدخله لأول مرة ، يريد ان يطمئن أن أحدا لا يتبعه ويراه .

ملأ صدره بالهواء بعد ان اطمأن ، وبدأ مسيرته ، وعند بوابة المبنى « مبنى المخابرات العامة المصرية » توقف ، ولمعت عيناه ببريق غريب ..اغلب الظن أن قلبه كان يدق فى تلك اللحظة بسرعة أكثر من المعتاد .. واغلب الظن أنه تذكر البداية التى قادته فى ذلك الصباح الى هنا ..

ولقد كانت البداية هناك .. فى اليمن .

وعندما استدعى الملازم أول « ماهر » مع كتيبته في النصف الثاني من مايو ١٩٦٧ كان مستغرقا في تدريب جنوده على «ضرب النار» تمهيدا لدخول احدى مسابقات الرماية .. وكان أمله أن تفوز الكتيبة بالمركز الأول في هذه المسابقة .. غير ان أمر الاستدعاء جاء ليحمله الى ظهر سفينة أقلعت بهم من ميناء الحديدة في أقصى جنوب البحر الأحمر الى الشمال .

ولقد وصلت السفينة الى الأدبية وعبر ماهر مع كتيبته القناة الى سيناء ، وتحركت بهم السيارات لتقطع شبه الجزيرة من غربها الى أقصى الشرق فيها .. الى مسافة قريبة جدا من الحدود الاسرائيلية .

وكان هذا يوم ٣ يونيو عام ١٩٦٧ ..

وكان عليهم أن يقضوا يومى ٣ ، ٤ يونيو فى تجهيز مواقعهم .. وفى حماس راح الجميع يعملون .. غير ان ضابطنا الصغير السن والرتبة ، كان يتملكه فى ذلك الوقت ـ مثله مثل باقى الرجال ـ احساس غامر بالعزة .. احساس غذته تلك المدمرات التى كانت تحيط بالسفينة فى رحلتها من الجنوب الى الشمال ، وتلك الغواصات التى كانت تحميها طوال الطريق تحت الماء ، ومشهد الطائرات التى كانت تحوم حولها فى السماء .

غير أن صباح ٥ يونيو جاء ليهدم كل شىء ها هى الصحراء أمامه بلا نهاية ، الشمس والحرارة والرمال والجبال والاقدام تخوض فى بحار من الحصى والصخور الملتهبة والاحساس العميق بالهزيمة .. الجوع لا يهم لكن العطش كان مأساة المآسى .. ساعة بعد ساعة كان يتجه غربا .. ولكن كان عليه أن يتجنب جنود العدو الذين سيطروا على شبه الجزيرة العزيزة ، أكثر ما كان يضنيه ويعذبه انه لم يكن يعرف شيئا .. لا شىء سوى السماء

يسيطر عليهـــا الطيران الاسرائيلى فأين ذهب طـيران مصر؟ .. لا شيء سـوى صحراء يسـيطر عليهـا الفزع وجنود العدو ينعمون بالغلبة لكن سلاحه على كتفه .. فهل يموت من العطش ؟ أم يترك نفسه للاسر ؟ .. أم هناك طريق ثالث ؟ ..

كان الطريق الثالث هو الثقة فى السلاح .

ما أسهل أن يلقي بنفسه على الارض ويترك للعـدو فرصة أن يأسره وليكن بعدها ما يكون ، أصبح عليه أن يختفى طوال النهـار فى صخور الشاطىء ـ وكان قد استطاع الوصول الي خليج السويس ـ دون أقل حركة .. الظلال والحرارة والعطش والطـائرات لا تختفى من السماء وكان عليه أن يتحول دون طعام أو شراب الى صنم .. حتى اذا جاء الليل هبط الى المياه وراح يخوض فيها سعيا نحو الشمال ، نحو قناة السويس .

الحديث يبـدو مثل قصـة سينمائية ، ولكن آثار الجروح فى جسده علامة صدق لا تخطئها عين .. فى كتفه شظايا دانات أطلقت عليه أو بالقرب منه ، فى مفصل ساقه ثلاث رصاصات .. استأصلوا بعد ذلك احـدى كليتيه كما استأصلوا جزءا من طحاله ، وفقد أيضـا ضلعه السابع .. ورغم كل ذلك فلم يكن يشعر بالألم .

لم يعد باقيا فيه ـ بعد أن مرض الجسد ـ سوى العقل ؛ وبالعقل استطاع أن يصل الى السويس فى أحد أيام العشرينات من يونيو.. شبحا كان أم جنديا جريحا ؟ واذا نفس اللنش الذى كان يسحب السفينة التى أقلعته من اليمن عندما دخلت ميناء الأدبية ، هو هو نفس اللنش الذى انتشله من المياه وهو بين الحياة والموت .. انتشله جسدا مزقتـه الرصاصات والشظايا ، وعينان تبرقان بآلاف الأسئلة .. كانت كلها تبدأ بكلمة : لماذا ؟ ..

غير أن لحظة واحدة كانت مثل وسام يوضع على صدر ذلك الضابط الصغير الذى لم يكن يتعدى فى ذلك الوقت الخامسة والعشرين من العمر .. تلك اللحظة التى اختفى فيها الألم ، وغابت عن الذهن الاصابات والجـــروح ، وتقهقرت الاسئلة الى حين، تلك اللحظة التى وقعا فيها، وفى جسده ما فيه ، فى أحد أكشاك الشرطة العسكرية فى ميناء الادبية ليسلم لهم سلاحه الذى ائتمن عليه ..

***

بعـد ذلك بدات مرحلة الام من نوع آخر .. من مستشفى الى مستشفى كان ينتقل ، من غرفة عمليات الى غرفة أخرى ، ومن طبيب الى طبيب .. وليست آلام الجسـد هى ما كان يشعر به ماهر ، لكنها آلام اشد وأقصى .. ويوم أن صـــــدر قرار من المجلس الطبى العسكرى انه أصبح لا يصلح لأن يكون ضابطا محاربا ، كاد يفقد هذا الشىء الذى كان دائما يعتز به .. كاد يفقد عقله .

وعلى كل .. فقد توصلت ادارة شئون الضباط ذات يوم الى حل وسط .. أن يخـــــدم ماهر فى وحـدة حراسة .

ولم يكن أمام صـــــاحبنا سوى طريق واحد .. أن يوافق .

السخط والضيق والعذاب ولا تزال الأسئلة تطن فى رأسه فراح يبحث عن اجابات .

وذات يوم دخل أحد المستشفيات وقد كانت الآلام تمزقه .. ذات صباح وجد نفسه فى صالة مليئة بالمرضى وكان عليه أن يجلس حتى يأتى عليه الدور .. فاى دور هذا الذي يجب أن ينتظره مقاتل فقد أجزاء من جسده .. صاخ وصخب وثار وكان عليه أن يجلس فى النهاية

فوجد مقعدا جلس فيه.. بجواره طالعه وجه تركي الملامح أيض الشارب ترتسم على الشفتين منه ابتسامة حنون .. مال عليه صاحب الوجه التركى وتحدث اليه وأخذه على كفوف الراحة .. قدم له نفسه .. فقدم له هذا الذي سوف نطلق عليه اسم « الغريب » نفسه .

***

رغم أن اسم هـــذا العميل الاسرائيلى قد نشر فى الصحف منذ سنوات ، رغم أنه حوكم وأدين وصدر ضده حكم ، فلقد كان من المستحيل تماما أن أحصل على اذن بنشر اسمه .. كان من المستحيل تماما رغم كل الحجج التى سقتها اليهم .. فهم هناك .. هؤلاء الرجال الذين يقبعون خلف أسوار الصمت يضعون للعوامل الانسانية كل اعتبار .. ان لهذا الرجل الذى خان الأمانة زوجة لا ذنب لها ، ان له أبناء يحملون اسمه لأنه أبوهم يعيشون كأى مواطنين شرفاء لأنهم لم يقترفوا اثما ، فلماذا .. لماذا نحيي ما مضى وقد نال المخطىء جـــزاءه .. ولولا ارتباطه بقصة ماهر ، لما اثيرت هذه القضية مرة أخرى .

***

كان ماهر لا يعرف فى ذلك اليوم وهو يجلس فى احدى قاعات ذلك المستشفى العسكرى ، بجوار ذلك «الغريب» ذى الابتسامة المطمئنة ، انه يخطو خطوته الاولى نحو هذا العالم الرهيب .. عالم الجاسوسية .

ولقد كانت تلك اللحظة الاولى التي وقف فيها الملازم أول ماهر أمام حارس مبنى المخابرات العامة المصرية ، نقطة تحول رهيبة فى حياته .. لم يكن يدرى أنه بعـــد ساعة من الزمن ، سوف يصبح انســانا آخر ، وسوف يدخل الى بوتقة شديدة الحرارة،بوتقة تنصهر فيها حياته كلها .. كان الماضى بكل الآلام بكل الأحلام ، ليتشكل

من جديد ، ليصبح انسانا آخر ..

سأله الحارس عما يريد ، فقال باختصار :

« عاوز أقابل مسئول » .

وهناك فى هـذا المبنى .. الذى يعرف رجاله كيف يعـاملون أعتى الرجـال دهاء فى العـالم .. لم يكن من الصعب عليهم أن يتعاملوا مع ماهر ، وأن يستقبلوه.

***

جلس ماهر أمام ضابط المخـابرات المصرى فى غرفة مغلقة ، فأحس بالراحة وقال :

« لقد جندتنى مخابرات اسرائيل » .

أغرب ما حدث ان هذا الضابط الشاب الهادىء الملامح المحدد القسمات الذى استقبله فى تلك الغرفة الشديدة الهدوء والصمت ، لم يطرف له جفن ، ولم ينطق .. هؤلاء الرجال لا يتكلمون كثيرا ، لكنهم يعرفون كيف يجيدون الاستماع .

تنهد ماهر – اذن – وبدأ يحكى قصته .

***

فى ذلك اليوم ، فى تلك القاعة ، فى أحد المستشفيات العسكرية ، جلس ماهر بجوار الغريب .. ولقد كان « الغريب » عربيـا جاء الى مصر طالبا حق اللجـوء السياسى فمنح اياه .

وكان قـد ذهب الى ذلك المستشفى فى ذلك اليوم بدعوى الوطنية للاطمئنان على جرحى المعارك من الضباط والجنود .. وكان بارعا فى تهـدئة ماهر الثائر الرافض للانتظار فى الدور مثله مثل أى مصاب بالتهاب فى اللوزتين .. كما كان بارعا فى مد جسر الصداقة والتعارف مع هذا الضابط المتفجر بالحماس والوطنية .. . وقبل أن

يغادره ماهر كان على موعد معه فى اليوم التالى .

حقيقة هامة لا سبيل الى انكارها .. ان الضـــابط المصرى الشاب ، أحب « الغريب » حبا حقيقيا .. التقت ميولهما معا ، وتناسقت أفكارهما ، وكان موضوع الهزيمة ـ بطبيعة الحال ـ مثارا لكثير من المناقشات بينهما .. مناقشات كانت تستمر طوال الليل يجمعهما دفء البيت أحيـانا ، أو صخب النوادى الليلية بكل ما فيهـــا من مرح !! ..

ذات يوم قال ماهر للغريب انه يكتب كتابا عن حرب ١٩٦٧ ..

ولأن الغريب كان لاجئا سياسيا ، فلقد كان يزعم انه على علاقة بالكثيرين من المسئولين فى مواقع سياسية ، ومواقع وزارية .. لذلك فعندما وعد « الغريب » صديقه بأن يتحدث فى أمر كتابة هذا مع بعض المسئولين ، أحس ماهر وكأن طاقة فى السماء قد فتحت له .. انكب على كتابه ليكمل فصوله .. راح يعمل فى حماس يصل فيه الليل بالنهار.. واذاكان للغريب أقارب يعيشون فىالمانيا الغربية ، فلقد كان يزورهم بين الحين والحين ، وعندما سافر ذات مرة لزيارتهم وعاد .. كان ماهر قد انتهى من الكتاب وكان على « الغريب » أن يخطو خطوته التى وعد بها ذات يوم ، فاتصل بوزير الثقافة فى ذلك الوقت والتقى به ليحدثه فى أمر الكتاب .. ثم عاد الى ماهر وملامحه تنطق بالفشل .. لقد رفض نشر الكتاب .

وازداد سخط ماهر وتبرمه ، وازدادت ثورته وضيقه .. وعندما سأله الغريب فى صوت هادىء :

لماذا لا تنشر الكتاب فى الخارج ما دام نشره فى القاهرة متعذرا ؟

وافق ماهر دون تردد !!

فى تلك الأيام .. لم يكن ماهر قـد تمـــرس بتلك الاساليب الخفية التى تتبع عادة فى الحرب السرية .. سافر « الفريب » ذات مرة الى الخارج ، وعاد يزف اليه نبأ هاما لقد استطاع أن يتعاقد مع ناشر المانى وافق على نشر الـكتاب .

وكاد ماهر يطير من الفرح .

ولكن ... اذا كان هذا الناشر من المانيا الغربية ، فكيف ينشر كتابا هو فى واقع الأمر يدين اسرائيل ويكشف حقيقة انتصارها المزيف .. فى الوقت الذى كانت فيه المانيا الغربية ضالعة مع اسرائيل علانية .

بذور الشك كانت تنبت ولـكن الاحداث ايضاكانت تتلاحق ويوم أن وصل الى القاهرة مندوب عن دار النشر الالمانية جاء خصيصا لمقابلة ماهر .. بدت المسألة جدا لا هزل فيه .. وجلس ماهر الى المنـــــدوب وقرأ له صفحات من الكتاب فأثنى عليها هذا ثناء عاطرا ..

فسأله ماهر فجأة :

« كيف تنشرون كتابا يدين اسرائيل وانتم ضالعون معها ؟ »

وكان الرد جاهزا بطبيعة الحال :

« اننا هنا لا تعنينا سوى الثقافة والحقيقة ، والرأى هناك متاح للجميع .. وان كان من الممكن أن تعاد صياغة الكتاب حتى يتفق أو يقترب من وجهة النظر الالمانية !! »

امام هذا العرض الأخير توقف ماهر .

ما الذى كان يفكر فيه فى ذلك الوقت .

أكذب لو قلت انى أستطيع ان أحدد .. غير انى أستطيع من جماع الحوار الذى دار بينى وبينه .. أن أتخيل .. فقط أتخيل .

هل بدأ الشك يساوره وهو يرى الطريق أمامه يفرش

بالذهب ، ليصنع منه ذلك اللاجىء السياسى جاسوسا على بلاده ؟

ان الاجابة ان لم تكن « نعم » ، فانها بالقطع سوف تكون « محتمل » .

وعندما سافر المندوب ، لم يعكف ماهر على كتابه لاعادة صياغته .. كان أنفه قد بدأ يتشمم تلك الرائحة النفاذة للخيانة .. وضع مجموعة من الاحتمالات وانتظر .

وعندما أعلن « الغريب » أنه سيطير الى المانيا تحقق واحد من احتمالاته ، وعندما عاد ، بدأ يقطع الشك باليقين .. ومما لا شك فيه أبدا ، أنه كان جسورا للغاية وهو يخوض اللعبة بشجاعة فائقة .

***

ما أن عاد « الغريب » من المانيا ، حتى تلهف ماهر بالسؤال عن مصير الكتاب ، ولم تكن لهفته حقيقية بأى معنى من المعانى ، وقال الغريب .. ان الناس هناك فى المانيا الغربية معجبون به أشـد الاعجاب ، لقد وجدوا فيه خامة عظيمة لشىء أعظم من الكتاب .. واذا كانت الهزيمة قد حدثت فمن كان المتسبب فيهـــا سوى الشيوعيين ؟ ..

صمت الغريب ، وقال ماهر : تمام .

ولقد كان العرض مبسطا ومغريا !

انهم يريدون محاربة الشيوعية ، وان بعض المعلومات البسيطة من الممكن أن تكون مفيدة للغاية .. ولا شىء آخر ..

ووافق ماهر ..

وافق وهو واثق بأنه أمر لا يحتاج الى الكثير من الذكاء لكى يعلم انه ــ كضابط فى القوات المسلحة ، وكساخط

على هزيمة لم يتسبب فيها ، وكناقم على كل أسباب الخذلان ـ كان صيدا ثمينا .

كانت حرب الاستنزاف قد بدأت .

وكان الغريب قد بدأ فى طلب المعلومات ، وعندما حان وقت الحديث عن الأجر كان ماهر يقطع المسافة فى كلمة : « ٥٠٠ جنيه فى الشهر » .. ثم أضاف : « أنا عاوز مرتب سنة مقدما !! » ولو ان انسانا آخر غير ماهر هو الذى وضع فى هذا الموقف ، لما جرؤ على الاستمرار ، غير ان هذا الانسان بالذات ، كان يخوض اللعبة متعرفا على كل شىء راصدا لكل حركة مسجلا لكل كلمة .. كان يريد أن ينتصر بعد أن هزم هزيمة لا ضلع له فيها .. و .. و ..

وتوالى وصول المندوبين من المانيا الغربية .

وفى علم المخابرات ، كان المندوب الذى يأتى يدرس جانبا من جوانب الجاسوس المبتدىء انهم يسألونه أسئلة يطلقون عليها اسم « الاسئلة الاختبارية ! » .. انهم بهذه الأسئلة يمتحنون قدراته .. قدراته على الملاحظـــة والرصد ، ورغبته فى الاعطاء والادلاء .

ونجح ماهر فى الاختبار نجاحا مذهلا .

وسلمه الغريب ذات يوم ثلاثة آلاف جنيه مرتب نصف سنة .

كان الستار الذى يعملون خلفه الآن قد تحول الى دار للنشر ، الى محاربة للشيوعية .

ولكن .. الى متى ؟

الى متى يطول الأمر حتى يفصحوا من الحقيقة .. الحقيقة مجردة ؟

ولقد أفصحوا عنهـا يوم وصلت الى مصر معـــدات التجسس .

يوم وصلت الكاميرا المينيكس وأدوات الحبر السرى، والاقلام والاوراق ... و ...

ويوم وصل جهاز الارسال اللاسلكى .

يوم سقط القناع نهائيا عن وجه « الغريب » فاذا به عميل اسرائيلى فى قلب القاهرة !!

***

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرا .. عندما انتهى ماهر من قصته.. وكانت الغرفة لاتزال ساكنة صامتة، وعينا ضابط المخابرات المصرى تسمعان، كما كانت أذناه تريان ، أما شفتاه فكانتا مطبقتين .

وصمت ماهر .. ونظر اليه !

وتحركت يد الضابط نحو سماعة التليفون ، رفعها الى اذنه وأدار القرص ، ثم ذكر رقما ، بعد دقيقة .. دخل شاب الى الغرفة ، وكان يحمل دوسيها قدمه الى الضابط فى صمت ثم انصرف .. وقدم الضابط الدوسيه الى ماهر .. وما أن فتحه حتى فغر فاه دهشة .

***

أغلق ماهر عبد الحميد الدوسيه ... ورفع عينيه الى وجه الضابط الصامت !

لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله ماهر .. كان الدوسيه يحوى كل شىء ، تنهد مرتين أوثلاثا ارتياحا ، حمد الله أنه جاء فى الوقت المناسب ، تحولت خلاياه الى أذان تسمع وعندما مال عليه الضابط ، كان ماهر على استعداد كامل ..

ولقد بسط خالد ــ وهذا هو الاسم الذى نختاره للضابط الاسمر الشاب ــ المسألة أمام ماهر، ثم عرضها عليه .

ففى مثل تلك الحالات لا يصبح أمام جهاز المخـابرات سوى طريق من اثنين .. أما ان يبلغ النيابة لتلقى القبض على الجاسوس ، وأما أن تطلب من المبلغ ـ اذا ماراًت فيه ورأى هو فى نفسه الصلاحية والقدرة ـ أن يستمر فى التعامل مع العدو لحساب مصر هنا يصبح المبلغ عميلا مزدوجا .

وفى ذلك اليوم أصبح ماهر عميلا مزدوجا .

***

الذى لا شك فيه ، انك لو جلست الى ماهر ، فلسوف يعترف لك ان ثمة دهشة قد أصابته عندما فتح الدوسيه واطل على ما فيه ..

وانى على يقين من أن رعدة قد سرت فى جسد ماهر كله ، وان رعبا حقيقيا قد أصابه فى نفس اللحظة التى فتح فيها ذلك الدوسيه واطلع على مافيه .

لم تكن الرعدة أو ذلك الرعب لأن المفاجأة غير متوقعة ، بل لأن الانسان عادة مايصاب بهما عندما يكتشف فجأة .. انه كان يسير طوال الأشـــــهر الماضية ، عاريا من ملابسه ! ..

لم يكن ما يحويه الدوسيه مجرد معلومات عن ماهر وعن علاقته بالغريب ، لكن الدوسيه كان يحوى ماهر كله .. بداخله وخارجه ..

ولكى أوضح الامر قليلا ، فلقد افلتت من ماهر ذات لقاء بينى وبينه جملة تشبثت بها ، قال : « على أى حال هم حاولوا معايا بكل الطرق .. بكل الطرق » ..

كان يعنى بحديثه هذا الاسرائيليين ، وان كل الطرق هذه كانت تحوى بالتأكيد أسرارا خاصة .. وعندما يعلم ماهر من « الغريب » ذات يوم أن مندوبا سوف يصل من

المانيا يحمل اليهم أموالا ، فلقد كان من الواجب أن يحتفيا بهذا المندوب ، خاصة اذا ما تصادف وكان المندوب فتاة شقراء زرقاء العينين رائعة الجمال .

كان الاسرائيليون أذكياء ، كانوا يعطونه خمسمائة جنيه كل شهر ، لكنهم كانوا يفتحون أمامه أبواب الانفاق على مصرعيها حتى يظل دائما فى حاجة الى المال واليهم ... ولقد كان شيئا باهرا أن يغازل ماهر فتاة أعمال شديدة الجدية ، شديدة الجمال ، تضع على عينيها نظارة طبية تضفى عليها سحرا آخاذا .. فتاة من ذلك النوع الذى تشعر أمامه خاصة اذا ما كنت شرقيا ومن دولة مهزومة ــ بالعجز تماما ــ وباستحالة الوصول اليه .

كم أدارت القبلة الأولى رأسه .

خلف زجاج النظارة الطبية تطلعت اليه عينان شديدة الزرقة ، عميقتان كالمحيط زاخرتان بالأسرار ، تفيضان بالغموض .. تلك الاسرار وذلك الغمـــوض كانت تلهب مشاعر فتانا وتحول ماهر الى عاشق عظيم خلال الأيام التى أنفقتها « مارلين » فى مصر .. حتى اذا سافرت ، احس صاحبنا بالفراغ يحيط بكل شىء ، فأحس الغريب : ودفع الى طريقه بسيدة اخرى صديقة لزوجته وضعها فى طريق الشاب الملتهب بالحماس ، فنمت بينهما قصة حب .. قصة كانت مدعمة بالصور فى الدوسيه الذى كان ماهر يقلب أوراقه بين يديه .

حتى الآن ، كانت المخابرات الاسرائيلية قد وقعت فى خطأ فادح .

بداية .. لقد كان انتقاء ماهر أو التقاطه شيئا عظيما ، فلقد تمثلت فيه كل مقـــومات الجاسوس العظيم دون شك ، كان لقطة لا تتكرر فى عالم الجاسوسية الا نادرا ..

ولكن .. لو أن الغريب كان « فرازا » متمرسا واعيا ملما بدقائق عمله ، لما نصح بتجنيد ضابط كماهر ، كان قد استطاع رغم كل السخط الذى كان ماهر يبديه ان يعرف سر هذا السخط الذى أصابه .. فلم يكن سخط ماهر منصبا على بلده .. كان السخط منصبا على أسباب نكسة هـــــذا البلد .. ولو ان الذى التقى بماهر كان « فرازا » ماهرا ، ولو أن رجال المخـــابرات الاسرائيلية الذين وفـــدوا على مصر لمقابلة ماهر كانوا متمكنين من عملهم ، لنصحوا ـ بالقطع ـ بالابتعاد عن هذا الضابط الذى كانت مصر بالنسبة له هى أبده وأزله ، هى بدايته ونهايته .. كانت مصر هى عشقه وأمله ، فكيف يخونها ؟

هنا يمكن لأبسط العقــول البشرية ذكاء أن يكتشف الفرق بين المصريين والاسرائيليين واذا لم تكن فى مجـــال تفاخر ، الا أن الموضوعية تســـتلزم منا دراسة أسلوب مخابرات كل منهما ، لنتعرف على معالم الطريق بلا تحيز .. واذا كان « فراز » الاسرائيليين وضباط اختبارهم قد اخطأوا فى اختيار نوع عميلهم ، الا أن « الفراز » المصرى اكتشف فى نفس الشخص ، ملكات تفــوق بكثير ملكاته كجاسوس فقط .

ففى ذلك الصباح الربيعى ، عرض خالد على ماهر أن يستمر فى اللعبة .. ووافق ماهر دون تردد .

فى ليلة حارة من ليالى شهر اغسطس ، كانت احـــدى الطائرات التابعة لشركة « لوفتهانزا » تغادر مطار القاهرة الدولى فى طريقها الى فرانكفورت بألمانيا الغربية .. وعلى الطائرة كانت ثمة سائحة ألمانية تعود الى وطنها بعـــد رحلة سياحية استمرت عشرة أيام قضتها السائحة ما بين

القاهرة والاقصر ـ فى حر اغسطس ـ ولم تكن هـذه السائحة تحمل سوى حقيبة صغيرة ذات لون أخضر .. كانت الحقيبة أصـــفر من كل هذا الاهتمام الذى كان يحوطها من بعيد فى سرية وصمت ، اهتمام لم يشعر به أحد على الاطلاق .. غير ان الحقيقة ان الحقيبة الصغيرة كانت تحمل تمثالا فرعونيا صغيرا من تلك التماثيل المقلدة التى يصنعها احفاد الفـــراعنة فى الصعيد .. ولم تكن الالمانية الجميلة ، مهربة آثار لأن التمثال كان بلا قيمة ، فوق أن ثمنه كان لا يتعدى الجنيه الواحد .

غير ان أهمية هذا التمثال كانت تكمن فى التجويف الذى بداخله ، والذى كان يحوى فيلمـــا صورت عليه معلومات عسكرية غاية فى الأهمية ..وكانت هذه المعلومات تبين بوضوح احدى الثغرات فى صفوف الجيش المصرى على الضفة الغربية لقناة السويس .. كانت هذه المعلومات معدة ومصورة بيد ماهر

وطوال الرحلة من القاهرة حتى فرانكفورت كانت هذه الفتاة مبتسمة .. بين الحين والحين كانت تقرأ فى كتاب يحمل عنوان احدى مسرحيات الكاتب الأمريكى « آرثر ميللر » ولقد ذهبت ـ طوال الرحلة ـ مرتين الى الحمام، وشربت قهوة سوداء ودخنت تسع عشرة سيجارة ، ولم تأكل شيئا .

وفى مطار فرانكفورت تبادلت مع موظف الجمـــارك كلمات مجاملة خافتة ، ثم حملت حقيبتها الخضراء الثمينة واستقلت احدى ســـيارات الاجرة الى بيتها .. كانت تسكن شقة صغيرة مكونة من غرفة واحدة كبيرة قسمت الى غرفة للنوم واخرى للطعام والمعيشة ، وكانت الشقة فى الدور الحادى عشر من احدى العمارات السكنية فى

المدينة المزدحمة .. ورغم أن الرحلة من القـــاهرة حتى فرانكفورت كانت طويلة ، ورغم أن الفتـــــاة كانت قد غابت عن بيتها عشرة أيام ، الا أنها لم تمكث فيها لأكثر من نصف ساعة غادرت البيت بعـــــدها ولم تكن تحمل الحقيبة الخضراء ، كانت تحمل صنـدوقا مغلفا بورق مصرى من ذلك النوع الذى تغلف به الهدايا ، كما أنه كان مزدانا بشريط أحمر من النايلون صنع هو الآخر فى مصر .. غير أن المصادفة الغريبة ، ان الصندوق كان فى حجم التمثال الفرعونى القديم.. وبعد ٧٥ ثانية تماما توقفت سيارة أجرة امام الفتاة فركبت وحملتها السيارة الى فيللا فى احدى الضواحى ..

كانت الفيللا تقبع فوق ربوة منعزلة تحيط بها حديقة صغيرة زرعت بهــــا بعض الورود الثمينة ، التى كان يحرسها ثلاثة من الكلاب الالزاسية المتوحشة .. ولقــد اختفت الفتاة داخل الفيللا وبعد أربع عشرة دقيقة غادر الفيللا رجل خط الشيب شعره ، لكنه كان بادى القوة ، يحمل حقيبة سفر صغيرة ، واستقل الرجل ســيارة مرسيدس كانت تقف أمام الفيللا ، وغادرها فى المطـــار دون أن يعنى باغلاقها .. وعندما وقف أمام ضــــابط الجوازات ، اتضح انه يحمل جواز سفر اسرائيليا ، وكان مسافرا فى نفس الليلة على احدى طائرات شركة «العال» المتجهة الى تل أبيب .

ولقد حدث بعد ذلك بيوم أو اثنين ، أن صــدرت أوامر سرية بانسحاب احدى نقط الحراسة على الضــفة الغربية لقنــــاة السويس التى كانت تربط بين موقعين مدججين بالسلاح .. صدر الامر باتمام الانسحاب نهارا وترك ذلك المكان خاليا ..

على الضفة الاخرى من قناة السويس ـ بعد ذلك بعدد لا بأس به من الأيام والليالى المظلمة ـ كانت ثمة حركة غير عادية قد بدات عندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصف .. كان من الواضح ان هذه الحـــركة لاشباح تسللت الى المياه فى هدوء مثير .. وعلى طول الشاطىء ولمسافة معينة ، كانت الاشباح تهبط من الضفة الشرقية الى مياه القناة لتعبرها الى الضفة الغربية ، وتصعد اليها فى نفس المكان الخالى من الحراسة ، صعدت الأشباح الآتية من الضفة الشرقية فى خفة وانتحت ركنا تظلله شجيرات كانت تطرح فى المـــاضى فاكهة ، وراحوا يستعدون .. حتى اذا اكتمل عـــددهم وعدتهم ، بدأت حركتهم .. كانوا يبدون وكأنهم يعرفون طريقهم بدقة متناهية .. وما أن قطعوا من الطريق أمتارا .. حتى اهتزت أوراق الشجر لزئير مزق الظلام والصمت معا .. زئير رجال وطلقات مدافع سريعة ونصال مدى قاتلة ... و .. و .. وكانت المعركة رهيبة ، أبيدت فيها الأشباح الآتية من الضفة الشرقية عن آخرها .

فى تلك الليلة .. انتفخت أوداج ماهر زهوا ... كان قد بدأ يذوق طعم الانتصار ..



رغم هذا كانت ثقة الاسرائيليين بماهر قد فاقت كل حد .. كان « الغريب » قد تقهقر الى المركز الثانى ، وتقدم ماهر الى المركز الاول ليدير الشبكة ادارة كاملة .. كان الاسرائيليون قد علموه الارسال اللاسلكى على أحدث الاجهزة التى عرفت حتى هذا الوقت ، وكانوا قد دربوه على الكتابة بالحبر السرى ! ! لكن المصريين عرفوا كيف يستغلون ما علمه الاسرائيليون اياه !! ..

ولقد توالى وصول الرسل من المانيا ـ فبعد مارلين وصلت « أورزولا » أو « أوزل شى » كما وصلت «باربرا» .. و .. ولقد كن فتيات انتقين بعناية فائقة .. كانت لديهن القدرة على ممارسة الحب كأنهن يذبن غراما ، فى نفس الوقت الذى يحسبن فيه كل حركة وكل سكنة وكل نظرة تصدر عن ماهر .. وعلى كل فلم تكن هذه أزمته .. كانت أزمتــه الحقيقية تكمن فى أنه يجب أن يمارس الحب بنفس القدر من الحرارة ولقد كان هذا عسيرا للغــاية ، فــكيف يمارس الانســـان الحب وهنــاك عيون ترقبه وهو عار تماما ؟!!

ان أى تغيير فى أسلوبه ، أو سلوكه ، مهما كان ضئيلا، كان كفيلا بأن يحسب عليه وأن يبعث بالشك الى عقول الاسرائيليين .

ولقد كان خالد أستاذا عظيما لهذا الجاسوس المبتدىء .. ورغم انى لم أتلق أية اجابة من ماهر عن سؤالى : ان كان قد زار اسرائيل أم لا ؟ .. الا أنى على يقين من أنه بالفعل قد زار اسرائيل فى تلك الأيام .. واذا كان ماهر قد اكتسب ثقة الاسرائيليين الى حد أنهم اعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا .. الا أنه لم يكتسب الثقة بتلك المعلومات المغلوطة والتى أودت بأرواح الكثيرين من رجالهم .. بل بتخطيط محكم وضعه له « خالد » الذى كان قــــد تحول مع الايام من ضابط مخابرات يوجه واحــــدا من المتعاونين معه فى عملية من أخطر عمليات التجسس الى أستاذ وصديق حميم .. كان خالد يمد ماهر فى بعض الاحيان بمعلومات صحيحة تماما عن الجبهة المصرية ، لكنها معلومات لا خطر منها .. ومما لا شك فيه ، أن

الاسرائيليين امتحنوا هذه المعلومات وتأكدوا يوما بعد يوم من صدقها .. وهكذا استحوذ ماهر على تلك الثقة ..

***

ومضت ثمانية أشهر ..

ثمانية أشهر أصبح ماهر فيها واحدا من الجواسيس، الذين تعتمد عليهم اسرائيل فى القاهرة اعتمادا عظيما .. ثمانية أشهر اغرقته فيها مخابرات اسرائيل بالمال والهدايا .. ولقد أنتجت مصانع « رولكس » بسويسرا ساعة خصيصا باسم ماهر ، وجاءته الساعة من سويسرا ومعها « براءة » مطبوعة ومختومة بأرقام سرية تقول ان هذه الساعة صنعت خصيصا للسيد / ماهر .. غير أن الشيء الذى حزن له ماهر حزنا شديدا هو السيارة ..

فذات يوم قرروا اهداءه سيارة جديدة .. زف اليه الغريب الخبر فطار من الفرح .. كان يومها يمتلك سيارة قديمة موديل ١٩٥٨ وها هى فرصة ذهبية لان يمتلك سيارة حديثة من أفخر الانواع .. غير ان خالد طلب منه ان يرفض ، واحتج ماهر ، لكن خالد كعادته أصر على الرفض .. وبعد أن رفض ماهر بحجة أن الشراء المفاجيء قد يكشفه ويلفت اليه الانظار ، عرف ان خالد حماه من مازق ، فلقد كان الامر كله فخا نصبته له مخابرات اسرائيل لتمتحن ولاءه .. فان الجاسوس الذى لا يأبه بمثل هذه الاشياء ، لابد وأن يكون هناك ما يحميه .. ومن يحمى جاسوسا سوى جهاز آخر للمخابرات ؟ ..

سألنى ماهر عبد الحميد ذات لقاء : هل تعرف ان المخابرات المصرية هى أقدم جهاز للمخابرات فى العالم ؟

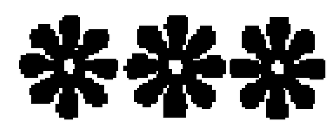
وكان جوابى الصمت .

واستمر ماهر فى فذلكة تاريخية يوضح الأمر :

في جميع مدارس المخابرات فى العالم ، أيا كانت هذه المدارس ، أول ما يتعلمه الطالب هو : أن أقدم وثيقة مخابرات عرفت حتى الآن ، هى الوثيقة التى قدمتها « ادارة المخابرات المصرية » للفرعون « مفتاح » ـ ١٤ قرنا قبل الميلاد ـ تحدد له طرق الاقتراب من مدينة « يما » التى كانت تقع جنوب « مجدو » بستة عشر كيلو مترا .. وتنصح المخابرات المصرية فرعون بأن يسلك الطريق الاوسط .

واذا كانت المخابرات عملية خبرة فى الاساس تتضاعف مع الممارسة يوما بعد يوم .. فان خبرتنا نحن المصريين تفوق أية خبرة أخرى فوق ظهر الكرة الارضية .

بمعنى : اننا يوم ان خدعنا العالم أجمع يوم ٦ أكتوبر ، وان أى انسان على وجه الارض لم يكن يعرف ساعة الصفر بأى معنى من المعانى سوى هؤلاء الذين كان عليهم أن يعطوا اشارة البدء .. مرده الى أننا أقدم ناس فى هذه اللعبة .



ذات يوم طلبت المخابرات الاسرائيلية من ماهر أن يسافر الى أسرائيل .

كان ماهر قد سافر بالفعل قبل ذلك .. هذا ما يؤكده لى حديثه المتناثر عن اسرائيل وعن تكوين جهاز مخابراتها ، وعن التركيب الهش لمجتمعها .. وقد يكون هذا كله نتيجة لدراسته التى انكب عليها فى شغف ونشاط عظيم فيما بعد بالادارة « ٤٤ » التى تخصصت لفترة فى الحرب النفسية ضد العدو .. ولكن هل يتأتى أن تأتى صوره التى كتبها عن تل أبيب والقدس فى كتابه « المفاجأة » تلك الصورة التى تنقل الى القارىء الوان الشوارع والبيوت والمتاجر والمحلات بل ورائحة المصانع

والبارات هل تتأتى مثل هذه الصور لكاتب دون أن يراها ويعايشها خاصة اذا ما كانت لدولة معـــادية يبدو من المستحيل للمواطن العادى أن يزورها ؟ .. وعلى كل فان طلب المخابرات الاسرائيلية فى ذلك الوقت ، كان يحمل نذيرا غامضا .

كانت الفخاخ التى تنصبها المخابرات المصرية عن طريق المعلومات التى كان ماهر يمدهم بها قد تتالت ، وكان أبسط ما يمكن أن يقال : ان ماهر فى رحلته هذه الى اسرائيل سوف يوضـــع تحت اختبارات رهيبة ومضنية لمعرفة ما اذا كان على علاقة بالمخابرات المصرية أم لا .

وسأله خالد كعادته : انت رأيك ايه ؟ .. ورد ماهر : أسافر ! .. فابتسم خالد .

ابتسم تلك الابتسامة التى كان ماهر قد بدأ يعرف عن يقين ، انها تحمل وراءها أنباء غير عادية .. وعندما ناقش خالد معه كل الاحتمالات الممكنة وراء طلبه للسفر ، كان ماهر يبدى حماســـا أذكته فى نفسه تلك الانتصــــارات المتتالية فى السفر ــ وفى دخول تلك الاختبارات ــ مهما كانت قسوتها .. ولقد كان واثقا من الانتصار ..

ومضى ماهر دون أن يأخذ ردا من خالد .

وفى اليوم التالى كان عليه أن ينتظر مكالمة تليفونية فى الثانية عشرة ظهرا فى مكان ما بالقاهرة .

أغلب الظن أن هذا المكان مقهى بلدى فى وسط البلد ــ كان ماهر يلتقى فيه مع بعض زملاء الدراسة ، وكانوا يلعبون الطاولة وأغلب الظن أيضا أن ماهر كان زبونا فى هذا المقهى من أيام الثانوى .

زعق الجرسون باسم ماهر فنهض ليضع السماعة على أذنه ، وجاء صوت خالد :

« العربية راحب للميكانيكى » .

وساد الصمت ..

يقينى أن أبسط ما شعر به ماهر هو خيبة الامل .. كان معنى تلك الجملة التى يطلقون على مثلهـــا فى عالم المخابرات اسم « الكود » ان العملية انتهت .

وعاد صوت خالد فى التليفون : « سامعنى » ؟ ..

« أيوه » ..

قالها ماهر فى أسى ، وظل ممسكا بالسماعة كانه ينتظر شيئا ، غير أنه لم يسمع سوى تحية مقتضبة رد بمثلها ، ثم وضعت السماعة على الطرف الآخر .

***

فى الساعة الثالثة من بعـــد ظهر ذلك اليوم ، ألقت النيابة القبض على « الغريب » .

وفى منزله ضبطت كل الأدلة المادية ، الكاميرا وجهـاز الارسال وأدوات الكتابة بالحبر السرى .. وكانت المفاجأة التى اذهلت الغــريب ، أنهم كانوا لا يفتشون البيت بل يتجهون مباشرة الى حيث ضبطت الاجهزة ، ويخرجونها فى صمت وأدب .

جازيــه المصريـة

عزيزتى ..

أكتب اليك هذا الخطاب لأرد على سؤال لك عن معنى « البطولة » ... ولست أدرى فى الحقيقة كيف يمكن ان أعرف البطولة ، فمسألة التعريف هذه مسألة تحتمل الكثير من المناقشات ، غير انى ـ مثلا ـ لا أعتبر « محمد على كلاى » بطلا كما يطلق عليه الناس ، وليس هذا من نوع « خالف تعرف » كما قد يتبادر الى لسانك السليط الذى تعودت دائما أن تهاجمينى به فى مناقشتنا الصاخبة .. ولكنه نوع من الاقتناع بأن هذا الشاب القوى العضلات الذى خلق هكذا مفتول الجسد والقوام ، والذى «تدرب» على لكم الذين ينازلونه والانتصار عليهم ، لا يمكن أن يكون بطلا لأنه أدى عمله على الوجه الاكمل .. أما البطولة بمعناها الحقيقى ، فلقـــــد عثرت عليها وأنا أجلس الى صديقى ضابط المخابرات المصرى ، عثرت عليها فى قصة « جازية المصرية » .

ولست فى حاجة طبعا لأن اذكرك دائما بأن الاسماء التى نوردها فى مثل هذه القصص أسماء وهمية ، فالابطال الحقيقيون لا يعنيهم أن تسلط عليهم الاضــواء ، ولا أن يصفق لهم الناس .

***

ولقد وقعت قصة جازية فى سنة من تلك السنوات التى

أعقبت نكسة يونيو ١٩٦٧ فى تلك الايام التى اختلط فيها كل شيء بكل شيء ، تلك الايام التى فقدنا فيها الاتزان كما فقدنا فيها الكثير من مقومات حياتنا .. تلك الايام التى انفتح فيهـــا الباب لشراء السيارات من الخارج والعودة بها ، فراجت تجارة السيارات ، كما راج السفر الى الخارج فى جحافل لم تكن تدرى الى اين هى ذاهبة ، وفى وسط القـــاهرة وفى أحد شوارعها ، كانت جازية تسعى بحثا عن عمل .

وككل فتاة تبدأ حياتهـــا ... تمنت جازية أن تعمل صحفية .

وبالفعل استطاعت أن تخطو تلك الخطوة الأولى التى خطـــوناها جميعا فى ذلك العالم المفعم برائحة الحبر والورق ، والتحقت باحدى دور الصحف كمحررة بالقطعة .. والمحرر بالقطعة هذا — ان لم تعلمى — هو صحفى غير معتمد ، يعتمد أساسا على نشاطه فى كتابة الموضوعات ، وفى جمع الاخبار ، على ان يتقاضى على ماينشر له منهـــا اجرا زهيدا .

ولست أدرى ما الذى حال بين جازية وبين التعيين ، ذلك انها كانت من ذلك النوع من الفتيات اللذى لا يأبه بشيء ، ولا يقيم وزنا الا لما فى رأسه من أهداف .. لم تشعر جازية فى الدار الصحفية بأن عليها أن تمشى جنب الحيط .. بل راحت تعمل فى المجلات حينا ، وفى الاعلانات حينا آخر ، كانت تنطلق كصاروخ لا يعرف هدفه ، وقد كنا كلنا كذلك فى مثل الفترة التى كانت تمر بها ، وكان هذا بالذات ، باعثا عن اثارة الاقاويل حولها ووجدت شخصيتها عند أصحاب الالسنة السليطة ، وعند أحزاب النميمة . المعتمدة الـكثير مما يمكن ان ينسج حولها .

هكذا وجدت « جازية المصرية » نفسها ، تتخبط بحثا

عن لقمة عيش كريمة تجعل منها عضوا صالحا فى المجتمع ، لكنها ـ بكل أسف ـ ورغم كل المجهود الذى بذلته فى كل اتجاه ، لم تعين .. وظلت محررة بالقطعة تعتمد على قدميها فى مسح شوارع القاهرة بحثا عن خبر او اعلان .

***

فى أحيان كثيرة تكون بذرة البطولة كالقلب ، كامنة فى صدر الانسان ، تمده بالحياة دون أن يشعر بها ، وكم كنت اتمنى أن التقى بجازية ، وحتى عنـــدما عرض على صديقى ضابط المخابرات المصرى أن التقى بها .. رفضت بعد تفكير ، فان الابطال الحقيقيين كالفنانين .. اننا نضع حول الفنان هالة من الضـــوء يصنعها فى وجداننا فنه ، ويظل الفنان تمثالا من الجمال حتى نلتقى به .. فاذا التمثال يتحطم ، واذا الفنان انسان له من النقائص أكثر مما للآخرين ربما .. ولقد خفت أن التقى « بجازية » حتى لا يتحطم التمثال ، فان ما صنعته تلك الفتــــاة المصرية ، ببساطة ودون طبول تدق ، أكبر من أن يصبح خلقا ثابتا أو ضوءا يشع من حول رأسها .

كانت جازية قد استطاعت خلال الشهور الاخيرة من ذلك العام أن تحقق من الاعلانات التى جلبتها الى الدار ، بضع مئات من الجنيهات ، ومع جحافل الزاحفين الى أوربا ، ومع طابور السيارات المستعملة الذى ملأ أرصفة موانىء ايطاليا واليونان ولبنان وفرنسا والمانيا ، قررت « جازية » أن تبحث لنفســـــها عن مورد رزق ، عن سيارة ..

والله وحده يعلم ما الذى كان يدور فى رأسها ، هل كانت تنوى شراء السيارة لكى تعفيها من اللف والدوران فى شوارع القاهرة جريا وراء خبر او اعلان ، أم كانت تنوى أن تصنع من السيارة « تاكسيا » تربح منه كل

شهر بضعة عشرات من الجنيهات تعينها على الحياة .

على كل فان النـــاس فى تلك الايام كانوا يشترون السيارة أولا .. ولقد سمعت « جازية » عن « صادق » وقال لها الناس انه ساعد الكثيرين فى شراء سيارات ، وكانت سعيدة الحظ أن عثرت على قريب للسيد« صادق» قادها اليه .

كان صادق هذا ، مثله مثل الكثيرين ممن ينبتون فى المجتمع ، فى كل مجتمع وأى مجتمع « جوكر » كان رجلا « بتاع كله » .

كان موظفا وتاجرا وسمسارا .. و ..

كان « صادق » فى الشهور الاخيرة ، قد عرف طريقه الى الخارج ، وفى الخارج عرف كيف يلتقط لقمةالعيش، ولكن من أين .. هذا ما لم يكن يعلمه أحد ، وهذا ما لم تكن تعلمه جازية .

ودون اثارة .. أو محاولة للاثارة ، كان « صادق » فى حقيقته « جاسوسا » .

لا تفزعى يا صـــــديقتى فان الجواسيس لا تنبت فى أفواههم أنياب ، ولكن تكون قوما متحضرين علينا أن نعيد النظر الى الصور التى نصنعها لبعض الناس فى أذهاننا .. واذا كان العصر الذى نحن مقبلون عليه ، هو عصر الكومبيوتر ، فان التعقيد سيصبح ـ دون شك ـ هو السمة الواضحة فى حيـــاة البشر ، وكان الله فى عون الأجيال القادمة .

لا تفزعى اذن ، فان الجـــاسوس عادة انســـان ناعم الملمس ، رقيق الحاشية ، تحتم عليه وظيفته أن يعرف كيف يعامل الناس ، كيف يسيطر عليهم ، وكيف يكتسب ثقتهم .. وهكذا التقت جازية بصـــادق ، قدمت له نفسها : انها صحفية ، وهى تريد أن تشترى سيارة ..

وإذا كانت مهنة الجاسوس ، هى مهنة البحث عن الاخبار ، فهل هناك صيد أكبر من صحفية مهنتها هى أيضا البحث عن الاخبار .

هنا تبدأ اللعبة .. وهنا خطت « جازية » خطوتها الأولى نحو المجهول .

***

بعد شهر بالضبط من تلك الليلة التى التقطت فيها « جازية » بصادق فى القاهرة ..

كانت تهبط من الطائرة فى مطار روما .. وكان صادق بجوارها يحنو عليها ويساعدها ، كان خلال المرات التى التقى فيها بجازية في القاهرة ، قد ألقى بضعة أسئلة ، أسئلة شديدة البراءة فى مظهرها .. أسئلة تدور حول عملها ورؤسائها ، حول علاقاتها والمسئولين الذين تعرفهم ، ونحن شعب يحب الدردشة .. وفينا ــ كما فى كل بلاد العالم ــ من يحب أن يظهر كعالم ببواطن الأمور .

وإذا كانت تلك النكسة قد أطلقت الالسنة من عقالها فى تلك الايام ، فلقد كان الحديث فى الطائرة بين صادق وجازية يمتد الى كل اتجاه ، عن النكسة ، عن الجيش ، عن اسرائيل ، عن ...

لا ...

لنتوقف قليلا عند « اسرائيل » .. ولنلق نظرة الى الخلف ، لنرى الصورة على حقيقتها .

لنتوقف قليلا لكى نرى كيف كنا « نرى » اسرائيل فى تلك الايام ...

لنتوقف قليلا لنتذكر كيف كنا ننظر الى أنفسنا .

فئة قليلة جدا فى مصر ، كانت تعلم طبيعة اسرائيل على حقيقتها ، كانت تعرف حقيقة تكوين المجتمع الاسرائيلى ، والجيش الاسرائيلى ، والفرد الاسرائيلى

... كانت تعلم حقيقة انتصار اسرائيل الذى اهتز له العالم ، وطنطنت له الدنيا ، وهلل له الشامتون والحاقدون والموتورون .. أو .. ولا داعى للاسترسال فلقد كان المصريون فى تلك الايام يشعرون بعجز لم يشعر به شعب عانى من الهزيمة .

فى الطائرة ، كما كان الامر فى القاهرة لم يكن الحديث بين « صادق » وبين « جازية » قد أخذ مسارا واضحا ، كل ما فى الامر ، أن الطعم كان يلقى أثناء الحديث ، وبذكاء المدرب ليصيب نقطة الضعف المتقيحة فى صدور المصريين فى تلك الايام ، ليصيب فى نفس جازية موطن الهزيمة .

فى روما .. أسلمت جازية قيادها بالكامل الى « صادق » .

كان وهو فى القاهرة .. قد تعهد بأن يتعهد بكل شىء .

وكانت وهى فى القاهرة .. قد أعطته كل مالها ، كل ما تملك .

ووجدت جازية نفسها فى أحد فنادق « روما » الفاخرة .. قادها « صادق » عبر هول الفندق فى مصعد يعمل به فتى فى جمال الملائكة ، صعد بها الى طابق يصبح وقع الخطوات أرضه همسا ، وقف بها الى غرفة تحول أحلام من كان مثلها . أو مثلى ومثلك الى حلم سينمائى ملون .. ثم تركها ومضى على موعد . بالله !

كيف يمكن ان تشعر فتاة مثل « جازية » فى ليلة كتلك الليلة الاولى التى قضتها فى روما .

تركها « صادق » ومضى لعمله فى روما .. تركها على موعد ووجدت نفسها ترفل فى غرفة حريرية فى فندق

حالي .. اغتسلت وبدلت ملابسها وغادرت غرفتهـــا وهبطت الى الفندق وترددت ثم حسمت أمرها وانطلقت الى شوارع روما البهيجة .

لعلك الان ياصديقتى تتعجلين الامر ، لـكنى فقط أريد ان أصل بك الى هـذا الاحســاس الذى يصيب الانســان ـ خاصــة من كان من دولة تفعل المستحيل لـكى تنمو ـ وهو يرى البذخ من حوله يبهر البصر ، واذا كان لـكل شعب من شعوب الارض مميزاته فان ما يتميز به الشعب الايطالى هو انه يتقن فن الحياة.. فن تنسيقها وممارستها معا والذى لا شــك فيه ان « جازية » قد انبهرت بما رأت ، وان رأسها قد ازداد دواره وعيناها تضيعان بين الاضواء التى تخطف البصر، ومظــاهر البــذخ البــادية ، ثم ... ثم تلك السيارات التى كانت تنزلق فى الشــوارع بلا ضــوضــاء ، وتلك الاجساد الفارهة المـكسوة بآخر صيحات الموضة .. و .. وعادت جازية الى الفنــدق .. وقضت ليــلة هدهدتها فيها الاحلام .

سؤال واحد كان يلح عليها : هــذه دولة هزمت ، فمتى تقف مصر ـ مثلها ـ على قدميها ، ومتى ، ومتى تصبح الحياة فيها مثل الحياة هنا ؟

***

فى اليوم التالى جاءها « صــادق » كملاك رحمــة يهبط من السماء ليقودها الى الجنة .. جاء ليقودها الى حيث اشترت سيارة فارهة ، سيارة .. سيارة نظيفة ، لامعة ، جميلة ذات جســـد براق ومقـــاعد وثيرة ، ســيارة قادتها « جازية » فى شــوارع روما ، فلقد كانت تعرف كيف تقود ســيـارة ، كواحدة من آلهة الاغريق القدامى .. وأمام الفنــدق توقفت وهبطت ،

وهرول الحارس ليفتح لها البـاب ، ونفذت الى الهول خلفهـا « صـادق » .. و .. وهل تستطيعين أن تتخيلى هـذا المشهد السينمائي الذى يدير الرأس ؟

فى بهو الفنـدق جلست « جازية » بجوار «صادق» وراحا يتجاذبان أطراف الحديث .. من وسـط سحابات الحلم الجميل كان ثمة سؤال يتأرجح فى رأس جازية ويكاد يبـدد الحلم الجميل .. لقـد ابتلع ثمن السيارة كل ما جاءت به من القـاهرة ، كل ما أعطتـه لصادق ، فمن أين تدفع أجر الفندق ، من أين تأكل، من أين تأتى بثمن تذكرة العودة ، من أين تدفع ثمن شحن السيارة .. بل هل ان للحلم الجميل أن ينتهى ، وبمثل هـذه السرعة ، هل تعود الى القاهرة قبل أن تستنشق هواء روما المفعم بالبذخ !

غير ان حديث « صادق » كان يأخذها بعيداً بعيداً ، كان حديثا مطمئنا ، كان دردشـة حول مصر ، حول المـال ، حول الاعمـال ، حول الفن ، حتى اذا حان موعد الطعام اصطحبها فى سيـارتها الى أحد المطـاعم الفـاخرة ، مرة أخرى تنزلق كالحلم فى شوارع روما حيث المرور منتظم ، حيث كل شيء يجرى بدقة ، أمام المطعم توقفت ، هرول الحارس ليفتح لهـا البـاب ، دلفت الى المطعم لتحتويها الموسـيقى التى تنبعث من الهواء ، من كل ذرة فضـاء ، من داخلها ، من حديث صـادق السلس الرقيق ، من صـوته الواثق الهادىء .. واذا كان صـادق يعرف كل شيء ، فلا بد انه يعرف انها ـ الان ـ مفلسة ولا بد انه سـوف يتدبر الامر ، ولسوف ترد له الجميل فى القاهرة ممتنة .

ومن كان مثل « صـادق » فلا بد ان له أعمـالا فى روما .. عاد بها الى الفندق واسـتأذن منها فى تلك

الليلة ، على موعد فى اليوم التالى .
وتركها صادق واختفى .. لم يختف ليلة ، أو يوما أو يومين ، بل اختفى أسبوعا كاملا ..

***

عزيزتى ...
هل تعرفين كيف يجندون جاسوسا ؟
ان المسألة بعد أن عرفتها ودرستها طوال ما يقرب من عام ، بسيطة كل البساطة .. ليست معقدة أو مركبة .. انهم اذا ما وقع اختيارهم على انسان ما ، بحثوا عن نقطة الضعف فيه ، ثم بدأوا يضغطون عليها ، ثم اذا ما سيطروا عليها تماما ، أصبحوا مسيطرين عليه فيستجيب هذا كل ما فى الامر.. ان استجابة واحدة ، لامر واحد ، تنقل الانسان من عالم الى عالم ، ان خطوة واحدة ، هى بداية طريق طويل نحو الخيانة ، نحو الجحيم .
ولقد تركوا « جازية » أسبوعا كادت فيه تفقد عقلها .. تركوها وسط النعيم بلا مال .. اختفى صادق تماما ، وأصبحت جازية عاجزة عجزا كاملا عن التفكير .. كانت تأكل فى الفندق ، كانت تخرج أحيانا بالسيارة لتهيم بلا قصد ، ثم تركت السيارة بعد أن كاد البنزين يفرغ ، وراحت تركب قدميها من جديد ، تجوب الشوارع بحثا عن مخرج ، حتى اليوم الاول فاعتراها القلق ، أين صادق ؟.. وفى اليوم التالى سألت عاملة التليفون أكثر من عشر مرات ان كان أحد قد سأل عنها .. ولا جواب ، وبدا موقف الاستعلامات يرمقها بنظرة غريبة ، ثم كف الحارس عن الهرولة نحوها وفتح الباب ، ثم أصبح الخدم يتلكأون فى الاجابة على الجرس .. ان النعيم فى حاجة الي المال ،

وكل خطوة فيه تكلف بقشيشا وثمنا ، وهى أصبحت لا تملك ثمن شىء ، كانت كعارية تسير وسط الغربة بلا سند .. تحولت الاضواء الملونة الى السنة لهب تكوى عقلها ، من أين تدفع ثمن الفندق ، من أين تضع بنزينا فى السيارة ، بل .. كيف تترك كل شىء وتعود الى القاهرة .. لم تكن « جازية » تعلم ان كل خطوة تخطوها كانت مراقبة ومحسوبة ، لم تكن تعلم ان هناك عيونا تتبع كل خطوة من خطواتها ، وان هناك آذانا تسمع كل كلمة وكل نبرة فى صوتها .. حتى اذا بلغ بها اليأس أقصاه ، دق جرس التليفون ذات يوم فى غرفتها ، وعبر الاسلاك جاءها صوت صادق ..

***

انت لا تعرفين .. كما لا يعرف الكثيرون ، ان لعبة المخابرات فى العالم كله بعيدة كل البعد عن العنف.. ان ما نشاهده فى أفلام جيمس بوند ليس حقيقة ، بل خيال .. ان المخابرات فى العالم أجمع .. لعبة اسمها « الذكاء » .

***

ولقد يسمحون فى ذات يوم ، هؤلاء الرجال القابعون خلف أسوار الصمت فى مبناهم هذا فى حدائق القبة .. ان احكى لك قصة ذلك الضابط المصرى الذى كان يلعب الشطرنج فى القاهرة مع ضابط مخابرات اسرائيلى فى تل ابيب ، ودون أن يرى أحدهما الآخر ، أو يحدثه ، أو يلتقى به ، أو يعرف أى منهما القطع التى يحركها الآخر .. قد يسمحون لى أن أقص هذه القصة التى انتصر فيها ضابط المخابرات المصرى ، فانتحر خصمه ، أمام رقعة الشطرنج .

وقد كانت جازية فى تلك الليلة التى حدثها فيها

صـادق بالتليفون ، قد تحولت ـ علميا وعمليا ـ الى قطعة من العجين الطيع ، كانت قد تحولت الى قطعـة لدنة من الصلصال يستطيع المثال الماهر أن يخلق منها ما يشاء .

حدثها صادق معتذرا .. وصاحت هى فيه :

« أستاذ صـادق .. أنا .. أنا »

وتوقفت .. أنا ماذا ؟.. ما الذى يمكن أن تقوله وهو يعرف كل شيء .. وعبر الاسلاك جاءها الصوت هادئا واثقا مطمئنا .

« آسف قوى يا جازية ، غصب عنى ، أنا بـكره الصبح حاكون عندك » .

بكره الصبح ؟.. وماذا عن الليلة ، ماذا عن الآن ؟ ولانها كانت بلا حول ولا طول ، فلقد شكرته متوسلة، ووضعت السماعة ، ثم انتبهت وكادت تصرخ فزعا .. لقد اصبحت وحيـدة من جديد .. وقفت وسـط الغرفة مبعثرة الخاطر والفـكر ، نظرت الى التليفون الانيق وقد عاد يغرق فى الصمت من جديد ، اختطفت حقيبة يدها وهرولت الى الطريق ، تحولت السيـارة الى قبر لامع ، وشوارع روما الى جحيم لا يطاق .. كيف يمكن أن تمضى الساعات ، ولقد مضت ، مضت بطيئة ثقيلة لـكنها مضت ، مضت ليطلع النهار وليأتى الصبـاح ، ولـكن فى أى سـاعة من الصباح سوف يأتى صادق ، واذا كان الصباح ينتهى رسميا فىالثانية عشرة فلقد اصبحت الساعة الواحدة ولم يأت صادق ، ومضى الظهر والعصر وغربت الشمس وانـكفأت جازية فوق الفراش وانخرطت فى البكاء .

***

جاءها الطرق الخفيف على الباب كحلم ، كانت هى

بين اليقظة والنوم ، كابوس هـذا الذى كان يراودها أم حلم ، صرخات تلك ام ضحكات ، وعاد الطرق الخافت من جديد .. فاستبانت الامر .. نهضت مضعضعة الحواس وانتبهت اكثر .. وعاد الطرق فهمست :

ـ مين ؟..

ـ أنا صادق ..

قفزت كالمجنونة لتفتح الباب .. وكان صـادق يقف أمامها باسما .

***

هل تشعرين بما كانت تشعر به ؟.. هل تدركين كيف كانت جازية فى ذلك الوقت ؟

اشك كثيرا فمهما بلغ بنا الاحساس ، فلا يمكن لأى منا أن يشعر بالنـار كالمكتوى بها فعلا .. واذا كانت جازية قد أصبحت الآن « جاهزة » تماما .. فان المثال الجيد ، يعرف كيف يغسل طينتـه ، وكيف يجعلهـا اكثر طواعية .. وهكذا وجدت جازية نفسها تجلس فى مطعم فاخر من مطاعم روما ، الذين يدفعون فى وجبة الطعام ما يقبضه اى منا فى شهر كامل ، حيث الطعام له رائحة المسك ، حيث النـاس يأكلون بلا صـوت ، ويمضغون دون أن يحركوا شفاههم .. ولم تستطع جازية أن تأكل ، كل ما استطاعته أن تتشبث بصادق ، تمسك رموشها بيـديه حتى لا يغيب مرة أخرى .. غير ان الدقائق كانت تمضى ، ليشكل المثال تمثاله على مهل وفى هدوء .. كانت الطمانينة تعود الى نفسها .

كان صـادق يتحدث عن المـال ، كيف جاء الى ايطاليا ، كيف وجـد عمـلا فى شركتين بدلا من شركة واحدة .. كيف .. كيف ؟

غير انه لم يقل لها الحقيقة بطبيعة الحال .. كانت جازية تعلم أنه زوج لاحدى المعارف فى الدقى .. ولم تكن تعلم ان لصادق زوجة أخرى فى الاسكندرية ، لم تكن تعرف ان تجارته أفلست هناك فنزح الىايطاليا ليعمل فى تهريب البضائع الى مصر ، لم تكن جازية تعلم كيف مر « صادق » بنفس التجربة التى مرت بها ، لم تكن تعرف انه كان ضابطا فى المخابرات الاسرائيلية ! !

بعد هذا كان لابد وأن تسير الامور على ما يرام ..

واذا كان « صادق » قد اختار ركنا فى المطعم قريبا من جهاز التكييف ، فلقد ادهشه أن نهض الرجل الجالس على المائدة المجاورة ليغلق الجهاز ،. ونهض « صادق » ففتح الجهاز ، ولم تنطق جازية فلم تكن تعرف الايطالية ، فلقد دار الحديث بين الرجل وبين « صادق » ترجمه لها صادق ، وكان مناقشة حول جهاز التكييف .، مناقشة انتهت بتعارف ، ذلك ان الناس هنا على طبيعتهم ، مش معقدين زينا .. هكذا قال لها صادق ورجل الاعمال ينتقل الى مائدتهما .. ليدور الحديث بين الجميع بالانجليزية ..

وكانت هذه هى البداية ..

فلقد قدم رجل الاعمال لها نفسه ، وما ان عرف ان « جازية » صحفية مصرية ، حتى تهلل وجهه ، انه كرجل أعمال يريد أن يفتح لشركته فرعا فى مصر .. وامتد الحديث حول مصر ، حول الحرب ، حول الحالة الاقتصادية ، حول .. حول .. حول .. ولا شىء فى الدنيا يعادل الحديث عن مصر فى لذته ، وانت بعيدة عن مصر .. نهض صادق الى التليفون أثناء الحديث مرات وعاد ، وامتد الحديث بين رجل الاعمال وبين

جازية ، واذا به يعرض عليها ان تـكون مندوبة الشركة فى مصر .

هكذا وجدت جازية نفسها امام طاقة فتحت لها فى السماء .

واذا كان الحديث حول المـال والاعمال يتم فى جلسة فلقـد دعاهما رجل الاعمـال الايطالى الى الغـداء فى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى كانت « جازية » تدلف الى المطعم الفاخر وحدها ، كان « صادق » قد أمدها ببعض المال .. وكان قد وعد بالحضور ، لـكنها لم تجده هناك .. بل وجدت رجل الاعمـال الرقيق الحازم .. ان رأس المـال لا يتحـرك الا اذا اطمئن الى الارض التى سـوف يخطو عليها .. ان مشروعه فى مصر قد يتكلف عشرة ملايين دولار ، ولسوف تكون لجازية بطبيعة الحال ـ نسبة مئوية ـ كما سيكون لها مرتب ثابت .. كان الامر يجرى بين يديها بالارقام والاوراق .. وليست المشاريع كلاما يطلق فى الهواء ، بل خرائط وموصفات كانت تفرد امام عينيها ، وأقع تلمسه بيـدها .. اسـتغرقها الحديث وسـال لعابها .. ان تـكون فى حاجة بعد الآن للجرى وراء خبر أو اعلان .. شىء واحـد فقط كان يقلقها .. ان صادق لم يأت .. واذا كان رجل الاعمال لايهتم بحضوره ، فسبب ذلك ان العرض قدم اليهـا لا اليه ، وعندما استدعاها الجرسون الى التليفون ، كان صـادق على الطرف الآخر يعتـذر ، ان لديه أعمالا لا بد وأن ينتهى منها ، ولسوف يلتقى بها فى المساء .

وفى المساء كانت تقص على « صادق » ما حدث ، وكان صـادق يبـدو مندهشا ، سعيـدا ، وكان يشجعها على القبول .. فهكذا بدأ حيـاته فى ايطاليا .

وكانت المفاجأة ان صادق أخبرها بأن السيارة سوف تشحن فى الغد الى مصر ، وأن حساب الفندق قد دفع .. ولقد حاولت جازية ان تسأله عن الحساب ، غير انه رفض بكرم حاتمى ، وأجل الامر برمته الى حين العودة الى القاهرة ..

انفرجت الازمة ، وعادت « جازية » تتنسم عبير الحياة فى روما .. وتعددت لقاءاتها مع رجل الاعمال .. ووضع المشروع أمامها بكل دقائقه .. غير ان شيئا واحداً كان ينقص الامر كله حتى يبدأ التنفيذ .. هو: ما هى الحالة الاقتصادية فى مصر ؟.. وهل تسمح هذه الحالة ببداية مشروع كهذا ؟.. وماذا عن الحرب ؟.. وهل يستعد المصريون لها أم ان الامور قد استقرت ؟..

كانت البداية طبيعية .. ولكن نهايته .. جعلت « الفار يلعب فى عب جازية » ..

***

قال لى صديقى ضابط المخابرات المصرى :

« نحن لسنا آلهة نعلم الغيب ، ان عملنا هو حماية مصر ، عملنا هو اكتشاف الجواسيس وبقدر ما نبذل من جهد ، بقدر ما ننجح ! .. »

هكذا كان يبسط الامر وهو يحكى لى حكاية «جازية» .. جازية المصرية ..

واذا كان العلم هو الاساس الصحيح لكل الاشياء فى الدنيا ، فان العلم هو الذى يرسم الطريق أمام هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت فى كوبرى القبة .

ولقد شعرت « جازية » بشىء غير طبيعى .. كان المطلوب منها فى المرحلة الاولى للمشروع ، أن يظل الامر

سرا لا يعرفه أحد .. ذلك ان رأس المــال يجب أن يتحرك وسط ضمانات اكيدة .. كما كان المطلوب منها أن تستقصي عن بعض الاخبار الاقتصادية .. وهــذا سهل عليها ، فانها ان كانت صحفية ، فان مهنتها هى البحث عن الاخبــار .. أخبــار الاقتصاد المصرى .. وأخبــار الجيش المصرى .. حتى يتسنى للرجــل أن يعرف فى أى أرض سوف يضع ماله ..

وطوال الفترة الباقية فى روما ، اختفى « صادق » !

وفى علم المخابرات ، يسمى من يعمــل ذلك العمــل الذى يقوم به « صادق » « الفراز » .. ويصبح على الفراز اذا ما اصبحت الفريســة جاهزة ، أن يختفى تماما من الحلبة ، وأن يبتعد .. ولقد ابتعد صــادق، ولــكنه لم يخلف وراءه ذلك القلق المدمر الذى ترك فيه « جازية » فى المرة الاولى ، ذلك انها الآن ، كانت فى حماية صــاحب العمــل ، الذى اتفق معها على الاجر، وودعها على لقاء فى موعد سوف يحدده لها فى القاهرة

***

عندما هبطت جازية فى مطار القــاهرة الدولى ،كانت تحمل فى حقيبتها بوليصة شحن الســيارة ، وبضــعة عشرات من الدولارات .. وكانت هى تخطو خطوتهــا الاولى خارج المطــار أمام طريقين لا ثالث لهما .. وكان عليها ان تختار .

***

هنا يا عزيزتى .. نصل الى لب الموضوع ..

هنا نصل الى معنى « البطولة » كما أفهمها أنا ..

لم يكن المطلوب من « جازية » فى تلك المرحلة شيئا غير عادى .. كان المعروض عليها عملا مغريا « بمرتب مغر » واحلاما لا يبددها اى مجنون .. أو « بطل » .

واذا كان المشروع سوف يتكلف عشرة ملايين دولار، فان أرباحه سوف تصل الى عشرات الملايين دون شك، واذا كانت الارباح ستصل الى عشرات الملايين ، فأى نسبة هذه التى كانت ستحصل عليها « جازية » ؟..

ولـكن ....

كانت ثمة رائحة تفوح من الامر كله ..

لم يكن ما يدور فى ذهن جازية ، شيئا محددا ، لم يكن سوى مجرد هواجس تطوف بالخاطر ، احساس غير طبيعى بأن ثمة شيئا غير عادى فى الامر كله.. فهل تبـدد الحلم أم تعود تسعى فى شوارع القاهرة بحثا عن عمـل ؟ ..

غير ان الامر لم يأخذ من « جازية » الـكثير ..

نظرت ذات صباح الى سـيارتها الجديدة ، وكانت قد أصبحت الآن ملـكا خالصا لها ، ثم فتحت الباب ، وجلست خلف عجلة القيادة ، وأدارت الموتور ، وانطلقت

كانت تعرف ببساطة وجهتها ..

كانت تعرف أين يقع ذلك المبنى الغارق فى الصمت..

وهناك طلبت أن تقابل مسئولا ..

***

عاد صديقى ضابط المخابرات المصرى يقول :

« نحن لسنا آلهة نعلم الغيب .. ان عملنا هو حماية مصر ، عملنا هو اكتشاف الجواسيس .. وبقـدر ما نبذل من جهد ، بقدر ما ننجح ! »

وكانوا قد بذلوا جهدا خلف « صادق » منذ ما يقرب من عام .. ووقع الخبر على جازية وقوع الصاعقة.. ان « صادق » ليس خائنا فحسب .. انه ضـابط فى المخابرات الاسرائيلية .. لقد اختار أحد الطريقين يوم أغراه المال عن الوطن ...

وخرجت « جازية » من المبنى لتشارك في القبض على صـــادق ، الذى ضبط متلبســـا كالعادة وحوكم وأعدم .. وعادت « جازية » تطوف شوارع القــاهرة بحثا عن عمل ..

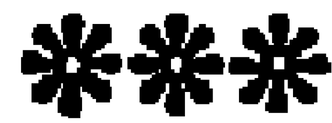
ولقد عثرت جازية على عمــل ، اصبحت صحفيــة بمرتب .. لــكنها باعت السيارة .

القبطان

لم يشعر أحد من المتفرجين الذين ازدحموا فى شرفة ملاعب « الاسكواش راكيت » بهذا الشاب الاصلع الذى راح ينزلق بين الاجساد كى يصل الى المقدمة ويتخذ لنفسه مكانا فوق الملعب مباشرة .. لم تكن أهمية المباراة التى كانت دائرة ان احد اللاعبين هو «سعيد» مدرب الاسكواش فى النادى فقط ، بل لأن اللاعب الآخر كان « عمر حمدى » ، ذلك الشاب الذى تمتزج الرجولة بشبابه امتزاجا يضفى عليه نوعا من السحر كان حديث الفتيات فى النادى ، والذى كان — اذا ما ظهر فجأة بعد اختفاءة من تلك الاختفاءات التى اشتهر بها — يثير فى النادى جوا من المرح والتحدى كان يقلب مباريات الاسكواش رأسا على عقب .

وعندما وصل ذلك الشاب الغامض الذى لم يلفت نظر أحد ، كان واضحا ان « سعيد » متفوق على خصمه ، ولكن ... كان الاكثر وضوحا ، ان عمر كان يستميت دفعا للهزيمة .. كان اللاعبان الآن يقفان عند نقطة تعادلا فيها ، ولقد دقت قلوب الكثيرين انفعالا عندما أحرز « سعيد » هذه النقطة فى لحظة غامضة ، لحظة لمحت فيها عينا عمر شيئا فى الشرفة ، كانت لحظة سريعة خاطفة أحرز فيها سعيد النقطة ، وانتهت المباراة ! !

لم يكن هـذا الشيء الذى حول نظرات عمر عن الكرة السوداء الصغيرة ، سوى وردة بيضاء من نوع القرنفل الذى ينتشر فى مصر فى مثل تلك الايام من الصيف .. وبعد خمس دقائق ، وربما أقل بجزء من الدقيقة ، كان عمر يدلف الى الباستير ـ غرفة خلع الملابس فى النادى ـ وهو يجفف عرقه ويتبادل النكات والضحكات مع الذين راحوا يلومونه ... وعندما توقف عمر أمام دولاب ملابسه ، كان يحمل فى يده مضرب الاسكواش ، وفوطة حمراء اللون ، وكانت يده ـ وهى ترتفع لتفتح الدولاب ـ قد التقطت ورقة صغيرة مطوية فى حجم ورقة البريد ... ولم يلحظ أحد بطبيعة الحال ، من الذى أعطاه تلك الورقة ، ولم يلحظ أحد انها ظلت بين أصابعه حتى دلف الى الحمام ، ووقف تحت الدش ، ولم يلحظ أحد انه فردها وقرأ ما فيها من رموز : ثم ... ثم ذابت الرموز تحت مياه الدش ، كما ذابت الورقة وتفتتت مع المياه والصابون وكأنها لم تكن!!



كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء عندما كانت سيارة « عمر حمدى » الصغيرة تخترق شوارع ذلك الحى الارستقراطى فى القاهرة ... وكانت المسافة الباقية محسوبة فى رأسه بدقة ... وقبل أن تدق الساعة العاشرة بدقيقتين فتحت بوابة أحد القصور الغارقة فى الصمت والضوء الخافت ، ونفذت سيارة « عمر » الى حديقة القصر وسارت فى أحد الممرات حتى وصلت الى خميلة كانت تخفى ما بداخلها ، هبط « عمر » من السيارة ، وسار تحت تكعيبة عنب مورقة ، لكنه قبل أن يصل الى نهايتها ، انثنى فجأة الى باب كان يختفى خلف أوراق الشجر ، دلف

من البـاب فاحتواه بهو هائل .. بنظرة سريعة كان قد شمل البهو كله ، وعندما خطا خطوته الاولى ، كان واضحا انه يعرف طريقه جيدا !

سار خطوات ثم نفـــد الى اليسار ليصعد درجات سلم دون أن يصدر عن قدميه ـ رغم سرعته فى الصعود ـ أى صـوت .. وعند قمة السلم كاد يصـطدم به رجل كان يهرول وكأنه يطارد شـيطانا ، تفـادى عمر الاصـطدام بالرجـل المهرول ثم دلف الى باب جانبى فطالعته فى الداخل « سوزى » .

توقف لثوان، واحتوته عيناها الزرقاوان، وابتسامتها الواسـعة الواثقة ، كان يعرف انه سيراها ، وكان كلما رآها ، أحس بالحنين الى تلك الايام الدافئة على شاطىء « بور توفينو » بالريفييرا الايطالية ، وعندما مال عليها هامسا بالتحية ، جاءه صوت الدكتور وكأنه يصـــدر عن الهواء :

ـ ادخل يا عمر !

نظر فى ساعته وتمتم فى ضيق :

ـ لسه فاضل عشرين ثانية ! ..

وابتسمت ســـوزى وهى تومىء له نحو الباب ، وجاءها صوته قبل ان يغلق الباب خلفه مرة أخرى وهو يقول « مساء الخير يا افندم ! »

***

فى تلك اللحظات بالذات ، كان القبطان « انطونيـو كاناليس » ـ قبطان أعالى البحار ـ يجلس فى أحـد ملاهى مارسليا والى جواره كانت « مارى لويز » .. كان واضحا ان القبطان يشرب فى تلك الليلة بصـورة تزعج مارى الى أقصى حد .. ثمة شىء غامض كان يحيط برجلها العجوز منذ ما يقرب من شهرين دون أن تدرى

ـ بالتحديد ـ ما هو ... كل ما تعرفه ان « ايزاك » جاءها ذات يوم وطلب منها أن تهتم بالقبطان ، ولقد أطاعت الامر كما تعودت ان تطيع منذ ان حدث ماحدث ... لم يكن أمامها مفر ، ان « الانتربول » ـ البوليس الجنائي الدولي ـ يسعى وراءها ، ظلت طريدة لسنوات حتى استقرت أخيرا فى مارسليا ، ولقد طوت الماضى على جرح لم تجف دماؤه ... قائلة هى : « نعم !!... » ومهما كانت دوافع القتل فلقد كان السجن هو مصيرها لو باح أحد بسرها الدفين .. ولقد كان « ايزاك » يعرف هذا السر ، وكان يحميها ، ولم يكن يطلب منها فى مقابل هذه الحماية شيئا سوى خدمات بسيطة.. وفى البداية ، كان أنطونيو واحدا من الرجال ، وفى النادى الليلى لم يكن هناك سوى رجال ، رجال ، رجال ... هذه هى مهنتها اليوم ... لسنوات طويلة عاشت هذه المهنة وتعودت عليها فلا مجال للتفكير فيها الآن وادعاء الشرف أو الرغبة فى حياة مستقرة، لا ... ولكن كان ثمة شيء يقربها من قبطانها هذا العجوز القوى البنية ، الحاد التقاطيع ..

منذ ان التقت به وشعره الرمادى يمس فى قلبها وترا غامضا .

« انطونيو .. الا تكف عن الشراب ؟ ! »

نظر اليها نظرة جعلتها تتساءل :

ـ ما الذى أراده ايزاك بأنطونيو يوم أن أوصاها به ؟ !

سؤال طالما الح عليها فى المرات التى رأت فيها انطونيو القوى العابث وكأنه يتبعثر ... لكنها لم تجرؤ على توجيه السؤال الى أحد ، ما لها هى وأعمال البحر وعصابات التهريب فيه ، ثم ... هل من الممكن

ان تظن فى انطونيو بكل خبرته رعونة أو تورطا فيما لا يجدى ؟ !

« انطونيو ... دعنا نغادر هذا المكان ! »

وافرغ انطونيو كأسه دفعة واحدة ، وعندما التقت نظراته بنظراتها ، أحست ان ثمة شيئا يخبو فى عينيه ، تلك النظرة العارمة المشتعلة أين ذهبت ؟.. وعندما كانا يغادران النادى الليلى ، كان ثمة سؤال يلح عليها ترى ... هل وقعت فى الحب أخيرا ؟ !

***

ولقد تعود « عمر حمدى » ـ اذا ما أسندوا اليه احدى العمليات أن يلجأ الى الشطرنج .. فى أحيان كثيرة كان يسخر من نفسه ، لكنه كان دائما ما يضع الرقعة أمامه ، ويجلس اليها طويلا ، ربما بالساعات ، لا ينطق حرفا ، ولا يكف عن التدخين !

ولقد كانت عملية اليوم غريبة ...

لقد ثبت ان اسرائيل كانت تحصل طوال الشهور الماضية على معلومات أكيدة عن ميناء الاسكندرية ، ولم يكن غريبا ان تجرى اسرائيل وراء الميناء بالتحديد ، لقد حصلت مصر حديثا على عدد من الفواصات ، وكان المصريون قد عرفوا كيف يقودون هذا السلاح رغم انهم كانوا يمارسون هذا لاول مرة ... كما كانوا قد حصلوا على عدد من القطع البحرية الحديثة التسليح .. واذا كان الاسرائيليون يعرفون قيمة السلاح البحرى المصرى على حقيقتها ، فهم لا ينسون ما فعله هذا السلاح بهم فى حرب ١٩٤٨ عندما داهمتهم السفينة نصر ـ وهى كاسحة الغام صغيرة كانت واحدة من ثلاث قطع هى كل السلاح البحرى المصرى وقتها ـ فى رأس السنة ، كما انهم لم

ينسوا ما فعله قائد السفينة دمياط أثناء العدوان الثلاثي فى سنة ١٩٥٦ ـ وكان كل ما حصل عليه « عمر حمدى » من معلومات ، لا يزيد على احتمالات ، فالميناء مفتوحة للعديد من السفن الاجنبية التجارية التى تدخل وتخرج ، كما ان وجود جاسوس فى الميناء أو فى الاسكندرية عموما ، كان أمرا واردا ..

غير انه فى تلك الليلة ، لم ينم حتى الصباح ، كانت رقعة الشطرنج ، عندما تسلل ضوء النهار من النافذة المفتوحة ، قد تحركت بعض قطعها المضادة .. وأصبح للرقعة الآن معنى ! ..

كان أول ما يشغل بال « عمر حمدى » هو ذلك السؤال الذى ظل يلح عليه منذ أن غادر الدكتور ، ومنذ ان قطع غرفة « سوزى » فى خطوتين دون أن يلقى عليها بالتحية ودون ان يلحظ تلك الابتسامة التى ارتسمت على شفتى الفتاة الشقراء : هل غيرت اسرائيل مركز تجسسها فى أوربا ؟ !

ولقد كان عليه قبل ان يسافر الى الاسكندرية ـ أن يضع عددا من الاحتمالات ، ولقد كان عليه لكي يضع هذه الاحتمالات ، ان يطلع على كل ما ورد من معلومات حول هذا الموضوع ...

وهكذا ... ما ان غربت شمس ذلك اليوم ، حتى كان « عمر حمدى » قد حدد طريقه جيدا ، وعرف أى الطرق يسلك ...

ولذلك : فلقد سلك فى صباح اليوم التالى الطريق الصحراوى الى الاسكندرية !

***

بعد عشرة أيام بالضبط ، كان القبطان « انطونيو كاناليس » يقف فى « الممشى » ناظرا الى الشاطىء

المصرى الذى كان يقترب ، كان الجو ساطعا بشمس الصيف الحارقة ، وكان البحر يبدو أمام عينيه كبحيرة وادعة ... وكان ما يشغل ذهنه شخصان « مارسيل ...وماري لويز »

ها هو ـ بعد كل هذا العمر ـ يقع فى الحب ، المشكلة الحقيقية انه يعلم عن يقين ان السنوات الستين التي يوشك ان يكتمل بها عمره ، دخلا فى هذه النار التي التهبت بها عواطفه ... قبل ان يراها كان يحيا مثل النورس ، رحلاته فوق الموج تقوده الى الشاطىء بين الحين والحين يشرب ويأكل ويحتوى بين ذراعيه امرأة يعرف كيف يرضيها ويعرف كيف يجعلها قادرة على ارضائه ... لم يكن غرورا ، بل كانت تجربة عمر حافل ... عمر بدأ يوم غادر لشبونة لاول مرة صبيا فى الثامنة عشرة من العمر ، تطلع الى البحر كما يتطلع الطائر الى السماء ، وهناك ، فى بداية تلك الحياة اكتشف خيانة « كارمن » ، يوم عاد من احدى رحلاته فوجدها قد تزوجت شابا آخر ... ولم يغضبه الامر، لكن أدمى فؤاده، منذ ذلك الزمان البعيد وهو يحيا كبحار ، لم يرسم خطة أو يضع قرارا ، لكنه هكذا كان ، ليس على الارض شاطىء لم يرس عليه ، وليس فوق الخريطة ميناء ليس له فيها امرأة ... حتى التقى بها ، بماري لويز ، فى تلك الايام التى تتفتت فيها مقاومة الرجل ويبدأ فى الاحساس بنزول الثلج ، ليس مهما لديه انه أحبها فهو قادر تماما على التحكم فى نفسه ، لكن المزعج فى الامر حقا ، هو ذلك الاحساس الطاغى الذى يدفعه الى الاحساس بأنها تحبه ! !

هل هذا ممكن ؟ !

حتى ولو لم يكن ممكنا فلقد حدث.. وهو يستطيع

ان يقسم بالعذراء انها تحبه ، والدليـل الدامغ على هـذا انها لم تبح له بحبها ... ولقـد اصابه هـذا بنوع من الهستريا ، كان يشعر برغبة جارفة فى شراء الـكرة الارضيـة ووضعها بين يديها ، ولقد بدا ماله يتبخر... وهـذا لم يحدث له ، وعندما كانت سفينته تصل الى مارسيليا ، كانت هى اسبق من السفينة الى رصيف الميناء ... ولقـد كان كل شيء يبدو ممتعا حتى دخل حياته جوزيف بائع العطور .

انطلقت صـفارة السفينة فصحا انطونيو كاناليس من افـكاره ، على مرمى البصر كان لنش الارشـاد يتأرجح فوق سطح الميـاه يحمل اليه صديقه الحميم، « مرسى الشتيوى » ... وأشـعل انطونيو «البايب» وارتسمت على شفتيه ابتسـامة ، انه يحب مرسى وها هو مرسى يلوح له من بعيد !

***

لم يكن الامر صعبا بالنسبة لعمر حمدى على كل الاحوال ، ورغم انه كان قد مضى عليه فى الاسكندرية ما يقرب من أسبوع أو يزيد قليلا ، الا أن الخيـوط كانت تتجمع فى يديه ، ورقعة الشطرنج تتخذ لهـا ملامح الصراع المحدد .

كان عليه أن يحدد المجموعة التى اختـارها للعمـل معه ، وكانت مجموعته تتكون من عدد من الشـبان الذين يعرفون كيف يستمعون اليه ، والاكثر ، الذين يعرفون كيف يفـكرون ... كان اكثر ما يسليـه فى الامسيات الحارة ، هو ذلك البطل الجديد للمخابرات ، والذى بدا يغزو أسواق أوربا كان « جيمس بوند » أو « العميل ٧ .. » يلهب أنفـاسه رغم ما فيه من « فشر » كان يحبه ، ولو كانت المهنـة بهـذه اللذة

لتحول النـاس كلهم اليها ... غير انه كان يفرغ من الـكتاب فى ليلة ، وكان هـذا يضايقه ... واذا كان تفريغ المعلومات التى وصلت الى تل أبيب ، ومقـارنتها بيوميات الميناء قد حصر اتجاه تفكيره ، فان الفضـل لا يرجع اليه بقدر ما يرجع الى غباء الاسرائيليين .

أعظم ما فى لاعب الشطرنج انه يستطيع اخفاء هدفه من حركة قطعة ، ان هـذا الاخفاء هو سـلاحه للنصر مهما راوغ الخصـم ، فـكيف يقع هـذا الضـابط الاسرائيلى فى خطأ صغير كالذى اكتشفه عمر ؟ !

بداية ... كانت المعلومات التى وصلت الى اسرائيل عن تحركات بعض قطع الاسطول صحيحة ، كما كانت المعلومات التى حصـلت عليهـا لحركة الميـنـاء أيضـا صحيحة ... ولقد حدثت هـذه التحركات فى فترات زمنية محددة ، فترات بعضها تفصـل بينها أسـابيع فى بعض الاحيـان تصل الى شهرين ، معنى هـذا انه ليس جاسـوسـا مقيما بالاسكندرية ذلك الذى يمد اسرائيل بالمعلومات ، لـكنه جاسـوس زائر ، يأتى فوق احدى السفن ، ويقلع معها ... وفى هـذه الفترات ، كانت هناك سفن بعينها توجد فى الميناء ، سفن أجنبية واخرى مصرية ... بعضـها يكون حاضرا والبعض غائب ، غير أن سفينة واحدة كانت تشترك فى كل هذه الفتـرات ، تلك هى السفينـة التى يقودها القبطـان « انطونيو كاناليس » .

***

راح مرسى الشتيوى ـ المرشـد بميناء الاسكندرية وهـذا هو اسمه الحقيقى! ـ ينظر الى صديقه بامعان، ثمة شىء يتغير فى طباع « انطونيو كاناليس » ، منـذ سنوات طويلة والعلاقة بينهما تتوطد ، ليس حبه لمارى

لويز هو الذى يؤرقه رغم ان انطونيو يؤكد له ذلك ، طالما حدثه انطونيو عن مغامراته مع النساء ، وهو على يقين من انه يحب مارى ولـكن ليس الى هذا الحد..

ولقد كان يجلس بجوار صـديقه فى السيارة وهما متجهان الى الميناء ، كان الليل قد انتصف منذ ساعتين، وكانا قد شربا ما يكفى لتلك الليـلة وما يكفى ليطلق لسان انطونيو من عقاله ، هكذا عرفه طوال السـنوات التى مضت ، ولـكن ها هو القبطـان يجلس صـامتا ساهما لا ينطق .

عند سلم السفينة توقفت السيارة وهبط القبطان مودعا صديقه وصعد الى المشى ، صـــاح ينادى « روبرتو» طالبا مقعدا ، تمدد فوق المقعد وترك نفسه ليستجم فى ضوء القمر !

بدأ الامر عندما همس جوزيف بائع العطور فى أذنه بأن لديه نوعا من العطور يندر أن يجده الانسان ، لم يكن يملك مالاً غير ان جوزيف استطاع ان يقنعه بالدفع فى مرات قادمة ... لا يعرف حتى رأى جوزيف بائع العطور لاول مرة ، غير أن مثله فى كل موانىء الدنيـا ينتشرون فوق ظهور السفن كالفيران فى أعماقها ، مرة بعد مرة ولقد تراكمت عليه الديون ثم ان سعادة «مارى لويز» كانت تفوق لديه كنوز الارض ، ذات مرة انتابته العصبية فراح يهـدد طـاردا جوزيف من فوق ظهر السفينة آمرا البحارة بالا يدعوه يصعد اليها مرة أخرى ... ثم انه فى تلك الايام كان يشـــعر بحب مارى لويز له يزداد ... سألته ذات مرة وهى تحتضن رأسـه داخل صدرها العارى :

— من أين تأتى بالمـالَ أيها العجوز ؟ !

وغمغم انطونيو وهو يقبلُ ما بين نهديها :

ـ أنسيت أيتها الفتاة انى قبطان أعالى البحار !..
ورن صوتها المنبعث من صدرها فى أذنه :
ـ اياك ان ترتكب مخالفات من أجلى !
رفع عينيه اليها فهمست له :
ـ انى أحبك ... وهذا هو الجنون بعينه غير انى أحبك حقا !
وكانت هذه هى المعضلة !

***

توقفت قطع الشطرنج عن الحركة لايام ..
كانت السفينة تحمل اربعين بحارا ، تغير منهم عشرون أثناء الرحلات الاخيرة .. وهكذا بقى أمامه عشرون آخرون ... واذا كانت تصرفات هؤلاء البحارة قد وضعت بكل دقائقها تحت عينه طوال بقائهم فى الإسكندرية ، فانه لم يجد مفرا من السفر ...
كان هذا هو الجنون بعينه غير انه تعود الجنون.
من العشرين كانت الشكوك قد انحصرت فى خمسة ، واذا كان دليل عمر حمدي فى كل ذلك هو احساسه وتجربته ، فان هذه طبيعة رجل المخابرات ، وكثيرا ما دخل فى مناقشات مع زملائه.. واذا كانت المخابرات هى « على الذكاء » واذا كان هذا العلم هو الوحيد الذى لا يدرس فى الكتب بل يعتمد على التجربة ، فطالما أرقه هذا الاحساس الغامر الذى كان ينتابه كلما تولى أمر احدى العمليات .. كان هؤلاء الخمسة هم : كبير المهندسين ذو الجسد العريض واليدين المتسختين دائما ، والذى لا يشرب الا أردأ أنواع الخمور ، وكان هناك « تونى » ضابط اللاسلكى الذى يتقن اثنتى عشرة لغة من بينها العربية بثلاث من لهجاتها اتقانا تاما .. وثلاثة من البحارة بدت تصرفاتهم غريبة ، لكنه اكتشف

انهم يتجرون فى بعض المهربات ، وكان هـذا من الممكن ان يكون ساترا ذكيا لعمليات تجسس نوع خطر !

ولقد طلب « عمر » من مخابرات السلاح البحرى المصرى ان تقوم قطع الاسطول ببعض التحركات التى اتفق معهم عليها ، كما أوعز الى قيادة الميناء ان تنقل احدى السفن التجارية المصرية من رصيف الى آخر.. وقطع تذكرة على سفينة القبطان انطونيو الذى بدا له ، مع ما جمع من معلومات عنه ، انه أبعد الجميع عن الشبهات .. وكان هذا فى حد ذاته ، هو السبب الذى من أجله أراد « عمر » أن يسافر ، وأن يضع نفسه داخل فم الاسد ، وأن يعرض العملية كلها للضياع .. ان هؤلاء الذين يبدون بلا أخطاء ، هم اكثر الناس دفعا للظنون الى رأسه !

وقبل أن يغادر الميناء كان قد رتب كل شىء .. وكان الرجال يعرفون تماما ، وبدقة متناهية ، ماذا عليهم ان يفعلوا ، وكان هو قد رتب كيف يتصل بهم اذا أراد ... صعد الى السفينة يرتدى نظارة طبية ، وكان شاربه قد نما ، وكان يرتدى بذلة مضى عليها اكثر من عشرة أعوام ، وكان يحمل أسم : الدكتور عبد الواحد اسماعيل ... أما وظيفته فكانت : أستاذ التاريخ القديم بكلية الاداب بجامعة القاهرة !

***

وكلما اقتربت السفينة من مارسيليا ، كانت طباع القبطان تزداد حدة.. وفى الكبائن والعنابر كان البحارة والضباط يتندرون بهذه الحدة ، ولقد انقسم رأى الرجال فى قبطانهم ، بعضهم يحبذ حبه لمارى لويز ، وبعضهم يقول ان الحب لم يخلق لمن مثلهم .. وأحيانا كانوا يذكرون هذا الراكب الغريب الاطوار ، الصامت

دائما المعتكف على تلك الـكتب العتيقة التى كان يدفن نظارته بين سطورها آناء الليل وأطراف النهار ، وكأنه يتغذى على الـكلمات لا الطعام .

ولقد التقى انطونيو ذات صباح بالبروفسور عبـد الواحد ، فاقترب منه وحيـاه ، لكن البروفسور المجنون رد التحية فى جفاء وهرول مبتعدا وكأنه يقطع الحديث . .

ولم يكن لمثل هذا الحادث ان يشغل القبطان ، فلقد كان ما يشـــغل ذهنه هو « مارسيل » .. كان عليه أن يعطى الان كلمته !

كان جوزيف قد استطاع الصعود الى ظهر السفينة، لا يدرى كيف فهكذا كانت تصعد الفيران لتصبح فى نهاية الامر حقيقة لا سبيل الى الهرب منها .. وكان قد عرض عليه بدل العطور مالا ، واذا ما قال له انطونيو ذات يوم انه لا يعرف من أين يسدد ما عليه من مال ، جاءه الجواب من جوزيف بسيطا ! !

وبعد ثورته الاولى وغضبه وجد انه لن يقع فى خطأ ، كان كل ما طلب منه أن يرى بعينيه ، وأن يختزن فى راسه ، وأن يدلى بما رأى واختزن فى صـوت خافت ومرتب .. وأن يحصل فى مقابل هذا على مائتى دولار شهريا ..

ولقد قاوم فى البـــــداية غير انه فى أول زيارة له للاسكندرية ، اكتشف انه يراقب وانه يحدد وانه يحصر وانه يختزن ، وعندما عاد الى مارسيليا استفزه جوزيف وابتز منه ما رأى وحصر واختزن ، ثم نقده مالا ومضى

من أفواه الرجـال والحمالين وموظفى المينـاء فى الاسكندرية كانت تتناثر المعلومات دون ان يســأل ،

أشياء عادية تحدث فى الميناء ، وفى كل ميناء ، غير انها كانت تجد صدى لدى جوزيف ، لم يكن هناك دليل واحد ضده فهو لم يكتب ورقة ولم يخط كلمة ، غير انه عندما دعي لمقابلة « مارسيل » عرف بما لا يقبل الشك انه كان يتعامل مع المخابرات الاسرائيلية ، عرف انه كان يعـــرف ويخفي عن نفسه ؟ .. كان مارسيل واضحا أشد الوضوح ، انهم يعقدون معه اتفاقا ويرتبون له مرتبا شهريا وينظمون له حيـــاته .. ولقد طلب مهلة للتفكير فوافق مارسـيل وابتسم ، وكان انطونيو يعرف طبيعة هذه الابتسامة ، كان يعلم انه لن يتراجع، فلقد تعاون معهم بالفعل مهما أنــكر ذلك على نفسه .

فى مساء اليوم التالى لوصوله مارسيليا كان يقبض بضع مئات من الجنيهات الاسترلينية ، وكان يشرب من الزجاجة الثانية ، وفى عينى « مارى لويز » كانت نظرة مرتاعة ، أما الدكتور عبد الواحد اسماعيل، فكان يجلس الآن فى غرفة مغلقة تطل على الميناء ، وأمامه كانت رقعة الشطرنج ، وكان هو غارق فى التفكير ، يدخن !

فى تلك الليلة كان الرجال الخمسة ، كبير المهندسين وتوني ضابط اللاسلـكي والبحارة الثلاثة ، يخوضون تجربة من ذلك النوع الذى لا يمارسه الانسان.. كانوا يتحركون تحت أعين شـديدة الدقـة تحدد تماما كل حركة ، يأتيها الواحـد منهم . اما القبطـان انطونيو كاتاليس فلقد كان له شأن آخر .. كان يتعارك مع مارى لويز فى بيتها ، كان ثمة قلق يعتريها ، كانت عصبية ، وكانت ســـكرانة ، وكانت تبكى فى تلك الليلة قالت لانطونيو ان « ايزاك» هو الذى دفعها اليه ، وانها خائفة عليه ، فلقد أحبته ، ويوم اقبلت عليه أقبلت كما كانت تقبل على كل رجل تعرفه ، لـكنها أحبتــه .. ولذلك

فهى تحذره .. ان هؤلاء الناس يعيشون حياة بلا قرار

ولقد مضت على تلك الليلة اربعة اشهر وكانت العلاقة بين القبطان « انطونيو كاتاليس » وبين عشيقته «مارى لويز » تزداد سوءا ، وكان « البروفسور عبد الواحد اسماعيل » قد اختفى منذ غادر السفينة ، لكنه كان موجودا فى مارسيليا .. ظل هناك طوال فترة بقاء السفينة فى الميناء وقبل ان تبحر فى رحلة العودة الى الاسكندرية ، غير انه عندما عاد الى مصر كان قد اكتشف شيئا بدا له شديد الاهمية ، فلقد نقلت اسرائيل مركز تجسسها فى أوروبا الى مارسيليا .. وكانت الشبهات كلها الان تحوم حول الرجل الوحيد الذى بدا — من بين جميع أفراد طاقم السفينة — بعيدا عنها ، كانت الاصابع تشير الى القبطان .. غير ان الامر قد حسم ذات مساء فى الاسكندرية ، حسمه المرشد المصرى « مرسى الشتيوى » .

كان « عمر حمدى » على يقين الان من ان انطونيو هو الجاسوس ، وكالعادة ، استطاع رجل المخابرات المصرى ان يتحكم فى المعلومات التى يحملها الجاسوس أو يرسلها ، فما أن تدخل سفينة القبطان الى الاسكندرية حتى تجتاح الميناء حركة تخفى حقيقة ما بها ، غير أن المشكلة التى واجهت « عمر » فى تلك الايام ، كانت « الدليل » فكيف يقبض على « جاسوس » بلا دليل ؟ كيف يثبت ان انطونيو كان يرى ويختزن ثم يقول ؟ !

ولم يكن أمامه سوى الصبر !.. والانتظار !

***

وعندما دق جرس التليفون ذات صباح فى غرفة « عمر حمدى » وكانت المكالمة دعوة الى مقابلة هامة .. كان يتساءل وهو فى الطريق الى ذلك المكان المجهول

هل وقع غريمه فى ذلك الخطأ الذى ظل ينتظره لشهور طويلة ؟ ..

وعندما وجد نفسه أمام المرشـــد المصرى « مرسى الشتيوى » ، لم يكن الامر مفاجأة وان تظاهر بذلك !! صافحه وجلس قبالته وراح يستمع اليه ، وكان على يقين من ان القصة قد شارفت على نهايتها .

***

فى مارسيليا كان الصراع قد احتدم بين انطونيو وبين مارى ، كانت مارى خائفة ترتعد على رجلها الذى كان ينزلق الى طريق غامض ، وكان انطونيو قد وجـد فى مصدر المـال الجديد ، اشباعا لرغبات بدت وكأنها كانت مكبوتة فى اعماقه طوال العمر .. ورغم ما كان بينهما من عراك وشجار ، الا انهما لم يفترقا .. لم تكن مارى تستطيع المجاهرة بما فى نفســـها ، ولم يكن انطونيو يستطيع البوح بما يفعل ، لـكنه ، مع كل يوم ، كان ينزلق اكثر .

جاءه « مارسيل » ــ ضابط المخابرات الاسرائيلى ، وليس هـذا اسمه الحقيقى بكل تأكيد ــ ليطلب منه ان يجند شخصا آخر .. ولم يكن أمام انطونيو سوى صديقه « مرسى الشتيوى » .. وعندما عرض عليه اسم مرسى ووظيفته ، وافق مارســيل دون تردد ، وأعطاه من المال ما كان يرى انه كفيل باغراء المرشـــد المصرى ..

وهكذا فاتح انطونيوصديقه ذات يوم فى الاسكندرية، وبرغم ما اعتمل فى نفس مرسى الشتيوى من صراع ، برغم ما عاناه من قلق ــ فلقد كان يحب انطونيو ــ الا انه تظاهر بالموافقة ..

وكان هذا هو ما قاله مرسى فى ذلك الصباح لعمر حمدى ..

وفى بساطة لم يكن مرسى ينتظرها بأى شكل من الاشكال .. طرح عمر المشكلة برمتها بين يديه .. كان أمام مرسى طريق من اثنين وكان عليه أن يختار .

اما أن يكتفى بالتبليغ ويكون قد أدى ما عليه من واجب ..

واما ان يستمر فى تنفيذ خطة وضعها عمر للقبض على انطونيو متلبسا .. وكان هذا لمصلحة مصر !..

ووافق مرسى على الاستمرار .. وكانت المعلومات التى يمده بها « عمر حمدى » من الدقة ، بحيث أثارت مخابرات اسرائيل ، وجعلت مارسيل يغدق المال على انطونيو حتى بلغ اربعة آلاف جنيه أسترلينى ، كما جعلته يطلب المزيد .. كانت المعلومات من الدقة بحيث تحركت قطع الغريم فوق رقعة الشطرنج فى بلاهة جعلت الطريق الى « الملك » مفتوحا تماما ..

وذات يوم من أيام الشتاء .. كان عمر حمدى يقف امام رقعة الشطرنج قبل ان يغادر مكتبه ، عندما حرك الوزير يضع خطوات وهمس : « كش .. مات ! » ..

ثم غادر المكتب ! !

فى مساء ذلك اليوم ، كان كل شىء معدا ..

دخل القبطان مع مرسى الشتيوى الى أحد المطاعم الشهيرة بالاسكندرية ، كانت المائدة التى اختارها تقع فى ركن منعزل .. طلبا كأسين وراحا يتهامسان .. كان مرسى يشعر بكل ما يدور حوله ، وعندما أخرج التقرير وقدمه الى انطونيو ، كان هذا يخرج مظروفا متخما بالمال ليقدمه له .. وفى تلك اللحظات بالذات ،

والمظروفان يجتازان المســافة الفاصلة بين الصديقين ، جلس « عمر حمدى » بجوار انطونيو وهو يهمس :

ـ مساء الخير ! ..

ولم يقل أحد من الرجال الثلاثة شيئا .. تهاوت يد انطونيو بالمظروف الى المـائدة ، وامتقع وجهه.. نظر حوله فرأى رجلين يجلسان على مائدة كانت خالية منذ ثوان ، وارتعد .. فلقد كانت نظراتهما صــارمة .. وامتدت يد شــاب لتـأخذ المظروفين ، وهمس الشاب وهو يجلس بجوار المرشــد المصرى مرسى الشتيوى :

ـ كابتن انطونيو .. انا وكيل نيـــابة الجمرك بالاسكندرية ! ..

وانتهى كل شيء ! ..

***

بعد بضعة أيام كانت شرفة « الاسكواش راكيت » قد ازدحمت بالمتفرجين .. وكانت المبــاراة فى الملعب محتدمة .. وكان « عمر حمدى » هناك يلاعب سعيد. وكان مصمما على الاخذ بالثأر ! !

الســـودانـ

فى أعقاب حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، سرى فى القاهرة ، كما فى جميـع البلدان العربيـة ـ وربما فى العالم كله ـ اعتقـاد راسخ بأن المخابرات الاسرائيلية قد استطاعت الوصـول الى نخاع الجهـاز الحاكم فى مصر .. وانها مخابرات « لا تقهر » ولا سبيل الى التغلب عليها ! !

فى تلك الايام ، لم يفتح أحـد من هؤلاء الرجـال القابعين خلف أسـوار الصمت فى كوبرى القبـة فمـه بكلمة واحـدة .. كانت « الحقائق » التى يملـكونها أغرب من الخيال ..

وهـذه القصـة واحـدة من تلك « الحقائق » التى وقعت فيما بين عامى ١٩٥٩ و ١٩٦٣ ، فى القاهرة ، الخرطوم ، اسمره ، بون ، بروكسل ، فرانكفورت ، و .. وتل أبيب .. و ..

وهى قصـــة ، مجرد قصـة من عشرات القصص التى تزخر بها تلك الملفـات السرية ، التى اذا ما طلبت أن تنشر ـ كحقائق ـ على النـاس ، غمغموا قائلين : الامن .. الامن .. الامن .. ! ! وهـــــذه هى حجتهم الـكبرى للصمت العميـــــق ! ..

فى صبـاح يوم ٦ ديسمبر عام ١٩٦٣ ، كان واضحا أشـد الوضوح ، ان ثمة حركة غير عادية كانت تجتاح

« الموســاد » المخابرات العــامة الاسرائيليــة ــ ففى صبيحة ذلك اليوم كان الجميع فى انتظــار برقيــة من القــاهرة .. وكان وصــول البرقيــة يعنى بالنسبــة اليهم الــكثير .. كان يعنى ان الحلقة قد اكتملت ، وان العمــل المضنى والشــاق ، الذى بذلتــه مجموعة من أكفأ ضباط المخابرات الاسرائيلية على مدى اربع سنوات أنفقوا فيهــا ما يقرب من عشرة آلاف جنيه استرلينى سوف يكلل أخيرا بالنجــاح .. ان وصول البرقية كان يعنى ببســاطة ان ثمة قنــاة قد فتحت فيما بين أوربا وافريقيا ، وان المعلومات الهائلة التى تحملها هــذه القنــاة ســوف تصب بالتأكيد فى تل ابيب .. بعد ان تكون مصر قد وقعت تماما تحت ســيطرة المخابرات الاسرائيلية ! ..

وعنــدما دقت الساعة العاشرة تماما ، فتح جهــاز اللاسلــكى مع القــاهرة ، وســاد الصمت فى غرفة الاستماع التابعة للموســاد ، وانطلق الصفير من الجهاز ــ فى الموعد تماما ــ يحمل الرسالة بالشفرة التى تعودوا عليهــا طوال ما يقرب من أربع ســنوات ... ولم يكن من الصعب حل الشفرة بسرعة ، غير ان الــكلمات التى تراقصت أمام عينى ضابط المخابرات الاسرائيلى ، جعلت الامر كله وكأنه نكتة ، أو كارثة .. وطلب الضابط اعادة الارســال مرة أخرى .. وعاد الصفير المتقطع من جديد قويا ، واضحا ، وعادت الرموز ــ هى هى ــ تتراقص أمام عينيه كألسنة لهب ، نفس الرموز ، نفس الحروف ، نفس الــكلمات .. هل هــذا معقول ؟. هل هو ممكن ؟ وللمرة الثالثة طلب ضــابط المخابرات الاسرائيلى من عميله فى القاهرة ان يعيــد ارســال البرقية .. وعاد الصفير من جديد لينفجر فى « الموساد » انفجارا مدويا

.. كانت البرقية تقول :
ـ المخابرات العامة المصرية تبعث اليكم بشكرها على ما لقيته منكم من تعاون ، وما قدمتموه لها من خدمات طوال السنوات الاربع الماضية .. وهى اذ تنهى معكم هذه العملية ، لتنتظركم فى عملية اخرى ! !

***

ما ان انتصف عام ١٩٥٩ ، حتى بات واضحا ان المخابرات الاسرائيلية قد نقلت مركز تجسسها فى افريقيا ، كانت دول افريقيا تستقل الواحدة بعد الاخرى ، وكانت اسرائيل تقفز الى هذه الدول لتدق فى أراضيها أوتادا تساعدها على التغلغل الى صلب البناء الاقتصادي والسياسى لدول القارة البكر الغنية .. واذاكانت المخابرات المصرية فى تلك الايام ، قد استطاعت ان تضع يدها على واحد من اخطر عملاء اسرائيل فى القارة السوداء ، واذا كان هذا العميل يشغل مركزا سياسيا وشعبيا حساسا فى احدى الدول الافريقية .. فلقد كان من الطبيعى ان تتسلل اسرائيل ـ عن طريق هذه الدولة ـ الى السودان ..

وفى الخرطوم ، وبالتحديد فى شارع الجمهورية ،كان هناك محل خردوات صغير ، يملكه يهودى اسمه « ابراهيم منشه » .. وكان لابراهيم منشه هذا بالذات تحركات بدت مريبة وتبعث على الشك ، كان يسافر الى أسمرة ـ التى تقع على نفس خط العرض ، وعلى مسافة بضعة مئات من الكيلومترات من الخرطوم ـ سفرات مريبة ، كما كان يسافر أحيانا الى أوربا .. غير ان سهراته الحمراء التى كان يقيمها فى بيته لاصدقائه من السودانيين ، كانت بلا شك وسيلة فعالة لنشاطه السرى ..

ولقد تعرف ابراهيم منشه فى اغسطس عام ١٩٥٩ على شـاب سودانى ولد فى القـاهرة ، كان « اسماعيل صبرى عبد الله » من أب سودانى وأم مصرية ، وكان يشغل وظيفة كتابية فى سـلاح المهندسين بالجيش السودانى .. وفى بيت ابراهيم منشه بدأت العلاقة تنمو بينه وبين اسماعيل الذى كان يبدى دهشته الشـديدة للاسراف الذى كان ابراهيم يغدقه عليه .. ويوما بعـد يوم ، وليلة بعد ليلة ، بدأت الاحاديث بين الصديقين ، واذاكان مرتب اسماعيل صغيرا ولا يكفى لمجاراة صديقه فى تلك السهرات الحمراء ، فان الصـديق يعرض عليه ان يجد له عملا بمرتب قدره ثلاثون جنيها فى الشهر..

وقال اسماعيل : « ايدى على كتفك ! .. »

وفى البـداية ، ظن اسماعيل صبرى عبد الله ، ان المسألة كلها لا تتعدى الاشتراك فى بعض عمليات التهريب .. ذلك ان الحديث مع ابراهيم ، وان كان غامضا ، الا انه كان يطوف حول السفر الى القاهرة ، أواسمرة أو أوروبا ... وأبدى اسماعيل موافقته التامة ..كان يعرف طريقه الى سلطات مكافحة التهريب .. غير ان ثمة شيئا غريبا جعله يتوجس ، شيء كالالهام أقرب .. وان كان الامر يتعلق بالتهريب حقا ، فلم اللف والدوران؟ ولم الغموض الذى يلف كل شيء ؟ !

لم يكن اسماعيل صبرى عبد الله يعلم فى تلك الايام ، انه سوف يخوض تجربة العمر كله خلال السـنوات القادمة ، لم يكن يعلم انه ـ بعد أن يوافق ـ سـوف يوضع تحت مجهر الصبر والانتظار لما يقرب من عـام كامل كان .كفيلا بأن يفتت أقوى الاعصاب ..

ويوم ان قال له « ابراهيم » ان عليه أن يسافر الى القاهرة ليجمع بعض الاخبـار والمعلومات ، انكشف

الغموض ، وايقن اسماعيل ان عليه ـ ان وافق ـ ان يصبح جاسوسا ! !

كان الطريق الى سلطات التهريب معروفا .. ولكن. اين هو الطريق الى « رجال المخابرات » ؟ !

عند هذه النقطة بالذات ، يصبح الامر عسيرا على التفسير .. فهل كان اسماعيل صبرى واحدا من رجال المخابرات العربية تسلل الى عرين الاسد بشجاعة ، أم انه استطاع ان يتصل برجال المخابرات المصرية واضعا الامر بين أيديهم ؟ !

واذا كانت « المعلومة » التى تقدمها المخابرات العامة المصرية تقول بالحرف الواحد : « ان المسألة لم تحتمل منه أكثر من حديث تليفونى وجد بعده رجل المخابرات المصرية يقف امامه ! » .. الا ان التجربة المريرة التى خاضها هذا الشاب السودانى تقول بوضوح : هل من الممكن ان يحتمل اى منا ، مثل هذه المخاطرة الا اذا كان مدربا تدريبا على أعلى مستوى عرفه هذا العالم السرى ؟ ! ..

وعلى كل .. فلقد أبدى اسماعيل صبرى عبد الله موافقته الكاملة لابراهيم منشه.. حتى يوم أن صارحه ابراهيم بأنه سوف يعمل مع المخابرات الاسرائيلية وافق واصبح عضوا فى شبكة تمتد من الخرطوم الى اسمرة الى القاهرة .. وكانت الخطة الموضوعة ، تأمل أن يصل ذراع الاخطبوط الى المانيا ..

ولكن كل شىء توقف فجأة ..

كانت شبكات التجسس فى القاهرة قد بدأت تسقط بشكل يلفت النظر ، واذا كانت المخابرات المصرية قد أعلنت عن « بعض » هذه الشبكات واخفت ضبط البعض الاخر ، فان المخابرات الاسرائيلية رأت ان تجمد

نشاطها ، وان تقبع ساكتة لفترة حتى يهدأ الجو تماما .. وهو تكتيك معروف فى جميع أجهزة المخابرات فى العالم .. لكنه تكتيك جعل اسماعيل صبرى ينتظر، ويصبر ، وهو على اتصال دائم بابراهيم منشه ، لعام كامل ..

هنا .. وفى منطقة الانتظار هذه ، يصبح الامر فى منتهى الخطورة ..

كان على اسماعيل ان يسير فوق شعرة ، لايتكالب ولا ينقطع ، لا يثرثر ولا يبدى القلق .. كانت فترة الانتظار ، فوق انها كانت سكونا ينطلق بعده الثعلب الاسرائيلى من جديد ، فلقد كانت اختبارا للعميل الجديد ومدى قدرته على الاحتمال ..

فى يوليو عام ١٩٦٠ استدعت المخابرات الاسرائيلية ابراهيم منشه الى أسمرة .. المركز الجديد الذى اتخذته المخابرات الاسرائيلية لنشاطها فى افريقيا .. وكان التقرير الذى قدمه ابراهيم منشه عن اسماعيل صبرى من الدقة بحيث كلفته بارسال اسماعيل الى أسمرة فورا ..

***

فيما بعد ، قال اسماعيل صبرى عبد الله ، انه ـ فى خلال السنوات الاربع التى عمل فيها مع المخابرات الاسرائيلية لحساب المخابرات المصرية ـ شعر بالخوف ثلاث مرات ، كانت المرة الاولى فى بنسيون كاليتيا بأسمرة ..

كان ابراهيم منشه قد زود اسماعيل بجواز سفر ، وقدم له تذكرة الطائرة من الخرطوم الى أسمرة ، ونصحه بالتوجه الى بنسيون كاليتيا فور نزوله من المطار ... وفى مثل هذه الحالات لا يصبح على الجاسوس

ان يسأل او يستفسر ... ان عليه ان يطيع فقط ، ولقد أطاع اسماعيل صبرى ... ركب الطائرة وفى ذهنه جملة ظل ضابط المخابرات المصري يرددها فى أذنه: لا تتصنع ، ولا تدع الشجاعة ، اذا انتابك الخوف فاترك نفسك له ولا تقلق ... ولقد ترك اسماعيل صبرى نفسه للخوف بالفعل عندما واجهه «يوسف» ، وهذا اسم ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى التقى به فى البنسيون ، كانت لحظات غريبة تلك التي مر بها هذا الشاب السودانى الذى رفض أن يخون ، دق يوسف فى عينى اسماعيل وسأله :

ـ انت مصمم تشتغل معانا ؟ ! ..

ـ ايوه مصمم ! ..

و .. و .. وبدات بعد ذلك سلسلة لا نهاية لها من الاسئلة الاختبارية ، أحس اسماعيل فى نهايتها انه أصبح منهكا ... وكان آخر ما قاله « يوسف » : مهمتك ستكون فى القاهرة :

ثم تركه ومضى ...

وظل اسماعيل فى غرفته بعد ذلك ـ حسب التعليمات ـ لا يغادرها ، ظل جالسا وحده يضرب اخماسا فى أسداس ، ماذا لو اكتشفوا أمره ، وهل يعقل أن يكون ذكاء المصريين أعلى من هذا النوع من الذكاء الوحشى الذى واجهه فى عينى يوسف ... ساعة بعد ساعة ... جاء الليل وانتصف ، وعندما فتح الباب توترت أعصاب اسماعيل ، لكنه بعد دقائق ، ودون كلمة ، كان يسلك طريقا خفيا ودون أن يراه أحد من نزلاء البنسيون ، لينتقل فى نفس الليلة الى فندق فيكتوريا بشارع هيلاسلاسي .. وهناك ، كان عليه أن يظل لخمسة عشر يوما كاملة فى تدريب شاق ... واذا كان يوسف هو

الذى اصطحبه من بنسيون كاليتيا الى فندق فيكتوريا ، فان ضابطا اسرائيليا آخر كان فى انتظاره هناك ، ضابط اسمه « ليون » ، وكان ليون هو مدربه فى التصـــوير والتحميض الفوتوغرافى ، كان مدربه فى كتابة الخطابات بالحبر السرى ، وبالشفرة واخفاء الافلام و .. و .. وكان عليه بعد التدريب أن يعود الى الخرطوم لينفـذ ثلاث مهام :

الاولى : أن يستقيل منعمله ... والثانية ... أن يتسلم من ابراهيم منشه أدوات كاملة للتصوير .. والثالثة : أن يبـدأ العمل وارســال المعلومات لهم على العنـوان التالى فى أسمرة : « جرماى تسفو ص . ب . ٦٥ »

لكن اسماعيل عاد الى الخـــرطوم ليقدم استقالته ، ويبحث عن ابراهيم منشه فلا يجده .. وأرســل لهم قائلا ان الاســـتقالة قد قبلت لــكن « منشه » ليس موجودا فى الخرطوم .. فعادوا يطلبون منــه أن يركب الطائرة الى الخرطوم !

الى هنا ، ومن الممكن أن يبـــدو كل شىء عاديا .. ولــكن كيف ؟ !

كيف يكون ابراهيم منشه عميـــلا اسرائيليا بهذه الخطورة ، ولاتعرف مخابراته انه ليسموجودا بالخرطوم فى الوقت الذى أرسلوا له فيه عميلا مثل اسماعيل ؟!

سؤال يطرحه الذهن ليجـــد الاجابة : فلقـد كانت رحلة اسماعيل هذه ـ دون شك ـ لمراقبته ، ومعرفة ما اذا كان على اتصال بأى أحد ... ولقد كان اسماعيل على اتصال بالمخابرات المصرية بالطبع ، بل ، ولقد التقى بضابط المخابرات المصرى وقص عليه ما حـدث وتلقى منه التعليمات ، ولــكن اتصالاته كانت من الدقة والسرية بحيث استدعوه مرة أخرى ، ليـــدربوه على الاستماع

الدقيق للاشارات اللاسلكية ، وليرفعوا مرتبه من ثلاثين جنيها فقط ، الى مائة جنيه استرلينى فى الشهر الواحد .

***

وصل اسماعيل الى القاهرة فى أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٦٠ ؛ وكان مزودا بكل شيء ، وكانت التعليمات الصادرة اليه واضحة اشد ما يكون الوضوح ، لكن أهم ما فى هذه التعليمات هو تجنيد ضابط فى سلاح الطيران المصرى ... فهل كان من الصعب عليه أن يقوم بمهمته ؟ !

لقد قامت المخابرات المصرية بأخطر لعبة من الممكن ان يلعبها جهاز مخابرات فى العالم كله ! ..

ليس مبعث الخطورة ان حياة اسماعيل صبرى عبد الله ، وهو مواطن عربى وضع عنقه على كفه وخاض معركة يستخدم فيها أرقى أنواع الذكاء البشرى فقط.. بل كانت الخطورة تكمن فى « الهدف » الذى تسعى اليه المخابرات المصرية ..

فى تلك الايام كانت المخابرات الاسرائيلية تلعب لعبتها فى أوربا .. كانت معسكرات الشباب اليهودى فى المانيا تحاول أن تبث فى وجدان الشباب الالمانى ذات الاحساس بالذنب تجاه اليهود.. ومن خلال هذا كانوا يستخدمون الشباب الالمانى لمصلحة اسرائيل . ولقد كان واضحا منذ البداية ، ان ثمة قناة سوف تمتد بين الشباب الافريقى والشباب الاوربى لخدمة أغراض اسرائيل .. وكان هذا فى حد ذاته « هدفا » وضعته المخابرات المصرية نصب أعينها .. فهل كان مقدرا لها ان تنجح؟!

كانت المعلومات التى ارسلها اسماعيل الى اسمرة شديدة الاهمية ، وشديدة الخطورة فى نفس الوقت

... كان أهم هذه المعلومات على الاطلاق ، ان اسماعيل استطاع تجنيد ضابط فى السلاح الجوى المصرى .

وكانت المفاجأة التى تلقاها اسماعيل ، ويقينا كانت مفاجأة للمخابرات المصرية ، ان أسمرة أرسلت تطلب من اسماعيل أن يعود ؟ !

وكانت المفاجأة التى تلقاها اسماعيل ، ويقينا كانت مفاجأة للمخابرات المصرية ، ان أسمرة أرسلت تطلب من اسماعيل أن يعود ! !

وكانت هذه هى المرة الثانية التى شعر فيها اسماعيل بالخوف .

قال اسماعيل عن هذه المرة :

ـ جلست أمام ثلاثة من ضباط المخابرات الاسرائيلية جاء اثنان منهم خصيصا من تل ابيب ، وظل الثلاثة لساعات طويلة يلاحقوننى بالاسئلة ، أسئلة أسئلة أسئلة .. حتى جاءت لحظة فكرت فيها .. ماذا لو قتلونى ، لو مزقونى ، لو اذابونى فى محلول .. لن يشعر أحد !

وعندما جاء الاستدعاء من أسمرة الى اسماعيل .. كان هناك احتمالان لا ثالث لهما .. الاحتمال الاول انهم قد ابتلعوا الطعم الذى ألقمتهم اياه المخابرات المصرية. ذلك الطعم الذى تمثل فى المعلومات التى وضعت بدقة متناهية .. فليست أية معلومات تصل الى جهاز مخابرات من عميل تؤخذ كقضية مسلم بها ، انها توضع تحت عشرات الاختبارات . وتدخل عددا لا بأس به من العقول الالكترونية تمتحن صدقها ودقتها .

وكان الاحتمال الثانى ، ان الامر كله قد انكشف ، وان العملية كلها قد ضاعت ، وان ـ ربما ـ حياة اسماعيل قد تصبح فى خطر داهم ..

وقبل أن يستقل اسماعيل الطائرة الى الخرطوم،كان قد لقن تماما بما يجب عليه ان يفعله ، كيف يجيب عن كل سؤال يوجه اليه .. كيف يتصرف فى المـأزق كيف يبدو ، كيف ـ حتى ـ يتنفس !

وكانت المفاجأة التى صفق لها البعض ـ فى صمت !!

ـ ان نتيجة الاختبارات المضنية لم تأت بالمرجو منهـا فقط ، بل قرر الخبراء الثلاثة ان أسماعيل صالح تماما للتدريب على الارســـال والاستقبال اللاسلـكى ، وانه قادر على تمييز الاسلحة وأنواعها ، وتفنيـد المعلومات وتصنيفها .. و .. وظل اسماعيل فى اسمرة أربعة أشهر كاملة . اربعة أشهر بدت للشاب السودانى وكأنها دهور بعد دهور ، كان يتلقى خلالها تدريبـات عنيفة على كل شىء .. كما كان أيضا تحت مراقبة من نوع رهيب وغد .. مراقبة كانت تحصى عليه أنفاسه ، بل واحلامه ! !

وليس هـــذا تعبيرا لغويا بأى معنى من المعانى .. فبالفعل ، يصبح حساب الاحلام فى مثل هــذه الحالات أمرا شـديد الضرورة .. أما كيف يحدث هـذا ؟ .. فهذا أمر لا يعلمه الا المتخصصون !

بعـد اربعة أشهر ، ركب اسماعيل الطائرة من أسمرة الى الخرطوم .. ومن الخرطوم الى القاهرة !

***

عندما كانت اللعبة تدخل دورا آخر شديد الخطورة .. عندما راحت المخابرات المصرية تتبادل مع المخابرات الاسرائيلية رســائل الشفرة بالمئات ، حدث ما لم يخطر ببالهم هناك ، لـكنه كان بالطبع واليقين ، يخطر ببـال الذين هنـا ! !

وقع اسماعيل فى الحب .

وكما تزوج أبوه من فتــاة مصرية وقع فى حبهــا ..

تقدم اسماعيل لخطبة فتاة مصرية بعد أنأعطته المخابرات المصرية النور الاخضر .. ولـكن ، كان عليه أن يتصرف فى المـأزق .

واذا كانت ثقة الاسرائيليين به قد بلغت حدا جعلهم يرسلون اليه فى القاهرة عميلا لاسـتلام بعض الخرائط والصور ، فان السخرية والاطمئنان بلغت بالمصريين حدا جعلهم يتركون العميل الاسرائيلى يدخل الى القاهرة ، ويلتقى باسماعيل، ويأخذ منه الوثائق ، ويخرج بها آمنا

وبدأ اسماعيل صبرى عبد الله يعانى فى حبه.. كانت خطيبته اذا ما سـألته عن موعد الزواج ، تهرب .. لم يكن يدرى متى يستطيع الزواج .. كان « عميـــــلا مزدوجا » بارعا ، وعبقريا ، نعم .. لكنه كان بشرا يحب

ولقد كانت خطيبته مغرمة به ، فصبرت ، وابتلعت عشرات الاسئلة التى لم تجد لها جوابا .

ثم .. ثم استدعته اسرائيل الى أسمرة مرة أخرى.. وكانت هـذه المرة هى الخوف بعينه ، كانت العملية كلها تصل الآن الى ذروة درامية . فلقد كان هـذا ــ فيما يبدو ــ اختبارا نهائيا تمهيدا لفتح تلك القناة المروعة بين شباب افريقيا وشباب المانيا ..

يومها .. سقط قلب اسماعيل بين قدميه

***

قال اسماعيل :

ــ فى هـذه المرة أخذونى الى بيت معزول فى أطراف المدينة ــ أسمرة ــ كان البيت كئيبا يقوم فى مكان خال من البشر والمبانى ، وهناك أغلقوا على الابواب والنوافذ وتركونى وحدى ، وحدى تماما ، لا خادم ولا رفيق ، لا حس ولا حركة وتعليماتهم الصارمة المشددة : اوع

تبص من الشباك ، اوع تخرج من الباب ، أوع حد يحس انك هنا ! ..

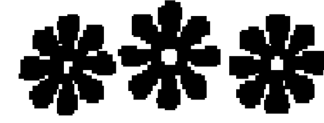
وطوال الليل لم ينم اسماعيل ، ولم يغمض له جفن.. هـذه المرة لو قتـل فعلا فلن يشعر مخلوق على وجـه الارض ان شيئا قد حدث .. لم تكن هـذه فقط هى المشكلة ، كانت المشكلة أشـد غموضـا ، فعندما هبط من الطائرة فى مطار الخرطوم قادما من القاهرة كان يظن انه ــ لو سافر أسمره ــ فلسوف يسافر بالطائرة كما تعود .. لـكن الاوامر التى صدرت اليه أن يسافر الى أسمره عن طريق البر ، وبدون جواز سفر .

ولقد سافر الى أسمره بطريق البر ، ولم يكن معـه بالفعل جواز سفر ، وعنـد الحدود بين السـودان وبين الحبشة كان كل شىء مرتبا وممهدا ، ودخل الىأسمره ، ووصل الى هـذا البيت المنعزل وليس هناك ما يثبت حتى مغادرته للسودان ..

كانت أياما مضنية تلك التى سبقت التعليمات الجديدة التى أعطيت له ..

ولقد تحمل اسماعيل صبرى عبد الله الـكثير، وضاعف من جهده وهم يدربونه من جديد ، وعلى مستوى أعلى فى الارسال ، والاستقبال اللاسلكى .. وعنـدما انتهت فترة التدريب . عاد اسماعيل الى مصر مرة أخرى كان هـذا فى النصف الثانى من عام ١٩٦٣ ، وكانت سـنوات أربع قد مضت منذ أن حاول تاجر خردوات يهودى فى ١١١ شارع الجمهورية بالخرطوم ، واسـمه « ابراهيم منشه » تجنيد اسـماعيل صبرى عبد الله لحساب المخابرات الاسرائيلية .. أربع سـنوات اكتملت فيهـا الخطة هنا وهناك .. واصبحت القناةجاهزة الآن لتتدفق فيها المعلومات بدقة متناهية من مصر الى أوربا الى تل

ابيب . ولقد كانت مخابرات اسرائيل تستعد لهذا اليوم ـ أيضا منذ سنوات ، عندما وضعت أعينها على «هوتير نميستر فروالد » ، الطالب الالماني الذى كان يجيـــد الانجليزية والفرنسية واليونانية واللاتينية والعبرية غير لغته الاصلية .. والذى دخل معسكر الشباب اليهودي ليصبح جاسوسا لاسرائيل ، وليسقط ـ فى أول عملية له ـ فى أيدى المخابرات المصرية ، وليحدث ســقوطه دويا هز أرجاء « الموســاد » ، وجعلهم يطلبـون اعادة برقية ساخرة ، ثلاث مرات ، وكأنهم فقدوا السمع .



جلس اسماعيل صبرى عبد الله بجوار خطيبته ،كان فى تلك الليــلة يبــدو وكأنه قد أزاح من فوق كاهلهعبئا ثقيلا... وكان وجهه يوحى بالراحة ، نظرت اليه خطيبته وراحت بالحب تحاول ان تستشف ماوراء هذا الاحساس الغامض بالراحة ..

ـ مالك يا اسماعيل ؟ !

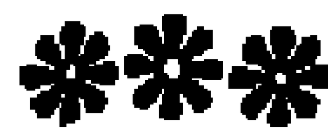
نظر اليها مبتسما ولم يرد ..

ـ اسماعيل .. مالك ؟ !

ـ افتحى التليفـزيون .. فيه برنامج كـويس عاوز اتفرج عليه ..

وفتحت الفتاة التليفزيون لترى خطيبها على الشاشة أمام عينيها .. اسماعيل الجالس بجوارها بدمه ولحمه .. كان يتحدث ، ويقول انه كان جاسوسا لاسرائيل .

وأطلقت الفتاة صرخة واحدة ، ثم سقطت مغشيا عليها



كان اسماعيل قد سجل حديثا تليفزيونيا يروى فيه القصة كاملة ..

و ... ولقد كان فروالد شاب المانى يعشق اللغات ،

وكان طبيعيا ان يتعلم اللغة العبرية ، وكان مدرسه اليهودى هو « الفراز » الذى دفعه الى معسكر الشباب اليهودى فى المانيا .. وكان هذا المعسكر بالذات ، هو « هدف » المخابرات المصرية ، كان بمثابة معمل لتفريخ الجواسيس فى المانيا .. ولقد اختير «.فروالد » بعناية ليكون وعلى مدى عامين أول من يخترق القناة الموصلة فيما بين افريقيا وأوروبا .. وكان « هدف » المخابرات المصرية أن تكشف طبيعة هذا المعسكر فتدمره ..

ولقد جاء « فروالد » ، وكان يحمل معه من الوثائق ما يثبت كل شيء .. وقبض عليه فى نفس اللحظة التى التقي فيها باسماعيل ..



كانت المفاجأة بالنسبة لخطيبة اسماعيل مذهلة .. وكان هو - وقد أفاقت من الاغماء يفسر لها كل الغموض الذى أحاط به لاربع سنوات كاملة .. كان قد أرسل آخر البرقيات الى الذين خدعهم بذكاء فاق ذكاءهم .. فلقد تبادل معهم ٦٠٠ اشارة لاسلكية و ١٥ خطابا بالشفرة ، و ٤٠ طردا من القلويات المصنوعة بمعرفة الخبراء ، و ٤ طرود تحتوى على نقود مخبأة بطريقة سرية بعثت بها مخابرات اسرائيل ..

و ... كانت اشارة الشكر من المخابرات المصرية الى المخابرات الاسرائيلية ..

ويظل السؤال معلقا :

هل كان اسماعيل صبرى عبد الله ، مجرد شاب سودانى وقع اختيار الاسرائيليين عليه لكى يحولوه من مواطن عربى الى خائن .. أم .. أم انه كان شيئا آخر ؟ رجل دخل لعبة الذكاء من أخطر أبوابها ، وتعرض للموت ، والضغط ، ولعبة الصبر .. وانتصر ؟ !

المجهول

في داخل هـذا العالم المليء بالاسرار والغموض .. تفجر بين الحين والحين تراجيـديا من نوع عنيف .. تراجيديا يقف أمامها هؤلاء الرجـال الذين تعودوا أن يخوضوا في أرض زرعت بأخطر الالغام ، حائرين.. ان الانسـان يتمتع ـ مهما كانت يده مغموسة في الواقع والخطر ـ بقدر كبير من الحساسية ، وعندما تنفجر بين يديه مأساة من نوع معين ، فانه ينفعل بها انفعـالا قـد يفوق انفعاله لو أن الذى انفجر بين يديه كان لغما شديد الانفجار ! ولقد كانت مأسـاة هـذا الجاسوس تحتوى على « مجهول » ظل يشكل علامة استفهام كبيرة ، حتى عندما أسـدل الستار على الفصـل الاخير ، ظلت علامة الاستفهام تؤكد ان هـذا المجهول ، كان في ثنايا النفس البشرية كالميكروب المتعسر على الـكشف ! !



سرى صوت المضيفة في جو الطائرة الدافيء ، تطلب من الركاب أن يربطوا الاحزمة ويكفوا عن التدخين .. كانت ميونيخ تبـدو الآن من الجو مغلفة بضبـاب السماء ، غير أن مبانيها كانت ترتفع في الهواء كصناديق صـغيرة بعثرت على ملعب للاطفال !

وفي المقعد الذي يحمل رقم ١٠٢ كان يجلس المهندس

احمـد عبد ربه : رجل الاعمـال المصرى الذى اتسعت اعماله الآن لتشمل العديد من بلدان اوربا وآسيا ، والذى اصبح مصنع البلاستيك الذى يديره فى روض الفرج ، ينتج أنواعا من البلاستيك غمرت اســـواق افريقيـا ووصلت الى آسيا .. واذا ما اراد احد أن يراجع هذا الاسم فى الغرفة التجارية : فانه يقينا سوف يعثر على مهندس يملك مصنعا بهذا الاسم ، وحتى نقابة المهندسين سوف تجد اسمه مدرجا فى قوائمها ، ولقد كان جواز السفر صحيحا مائة فى المـائة ، كما كانت كل الاوراق التى يحملها هـذا الراكب فى حقيبتـه الخاصة ، أو فى حقيبة ملابسه ، منضبطة تماما ، ليس فيها خطأ واحد.

أطفأ المهندس « احمـــد » سيجارته مطيعا لاوامر المضيفة الحسناء التى منحته فى ذلك الصباح البارد ، ابتسامة دافئة...كانت سوزى سمراء مصرية التقاطيع دعجاء العينين ، ذات شعر اسود فاحم .. غير ان اجمل ما يلفت النظر فيها ، كانت تلك الابتسامة المشرقة التى اذا ما بدت ، غمرت تقاطيع الوجه كله !

ولقد لحظ عدد من الركاب ان ســوزى تبـادلت مع الراكب الشاب كلمات أطلق بعدها ضحكات خافتة، كما لاحظوا انها الحقته بعدد لا بأس به من فنـاجين القهوة السوداء .. كان احمد يبـدو وكأنه يستطيع ان يغزو عالم النساء بنفس القدرة التى يغزو بها عالم المال .. ففوق الخاتم الذهبى الثمين الذى كان يحلى احدى أصابع يده اليسرى ، كانت ملابسه ، وتسريحة شعره ، توحى بأننا أمام شاب مصرى يعيش حيـاته فى أوربا ، وينعم بقدر لا بأس به من الثراء ..

وعنـدما دارت الطائرة فوق مطـار ميونيخ دورتها الاولى ، كان احمد قد غرق فى التفكير لاذنيه .. ولـكن

أحدا ـ بالطبع ـ لم يكن يعرف ما الذى كان يدور فى ذهنه فى تلك اللحظات الغريبة ، كانت لحظات تشعره دائما بأن الدم يركض فى عروقه ، عندما يقترب من الخطر ، وعندما يواجه « المجهول » لاول مرة ! ..

ومنـــذ أن وقعت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، خلع الاسرائيليون برقع الحياء ، نسوا هزائمهم المتالية فى معارك الذكاء العنيفة ، كما نسوا كل ما لحقهم من عار تحدثت به اجهزة المخابرات فى العالم كله .. واذا كان احمد ـ كضابط من ضباط المخابرات المصرية ـ يتمتع بقدر من الرومانتيكية غير مستحب فى مثل عمله هذا الخطير ، فانه فى بعض الاحيان كان يدمع وهو يرى كيف انطلقت اسرائيل ، فى كل أرجاء الارض ، تجنـد الجواسيس وتسقط الشـباب والرجال ، وتدفع بالعيون ، من كل جنسية وكل ملة ، الى مصر ، الى قلبها تريد أن تنهشه !

كان اسمه الحقيقى هو « عمـر حمـدى » ، وكانت النكسة قد انبتت فى رأســه بضع شعيرات بيضاء أضفت على شـبابه نوعا من الرجولة الآسرة .. وكان فى طريقه الى « ميونيخ » للـكشف عن جاســوس بدأ لهم فى القاهرة ، وكأنه أصبح يتحرك فى ملعب ليس به غيره ؟!

هبطت الطائرة أرض المطار ، وفى نفس اللحظة التى لامست فيهـا عجلات الطائرة الممر انبعثت من عينيـه نظرة غريبـة ، استقبلتها « سوزى » بسرعة جعلتهـا تخفى عن أشد العيون ذكاء ...

وعندما استقبل « عمر حمدى » ـ أو المهندس احمد عبد ربه ـ هواء « ميونيخ » البارد وهو يخرج الى سلم الطائرة .. رمى ببصره الى مبنى المطار ، وكان يعلم انه ، منذ هذه اللحظة ، قد بدأ مشواره الخطر ..

كانت القصة قد بدأت منذ خمس سنوات بالتحديد في عام ١٩٦٢ ..

في ذلك العام ، وفي بداية الصيف ، كانت مصر كلهـا تنتظر نتيجة الثانوية العامة .. وفي تلك الاحيـاء التي تتكدس فيها العائلات المنتجة للاطفال ، يصبح لتلك الايام من كل سنة ، مذاق خـاص .. ويسـود الحديث بين الرجال والسيدات والآباء والامهات والشبان والفتيات، حول النتيجة ، ولجان الرأفة ، ومكتب التنسـيق والجامعات .. وفي حي « روض الفرج » ، وفي شـارع يحمل اسم « الـكركي » وفي شـقة بأحـد منازل هـذا الشارع . كان « سمير » وسـط عائلته ، ينتظر ظهور النتيجة .. ولقد ظهرت ، وكان مجموعه ٤١ ٪ فقط !

في تلك الليـلة نشبت معركة عنيفة بين سـمير وبين والده .. كان الآب موظفا يقترب من سن الاحالة الى المعـاش ، وكان الاولاد يملأون البيت عليه ضجيجا ومصروفا وعذابا كان يصبه على سمير ، الذي بالرغم من « خيبتـه » في المدارس ، كان يبـدو « دون جوان » لا يهتم الا بتصفيف شعره والعناية بملابسه وملاحقـة الفتيات .. ولقد كان سمير حقيقة شابا متفتحا ، كان فهلويا خفيف الظل سريع الحركة يعشق الحياة بعنف.. غير ان قسوة الآب عليه جعلته كارها لهذه الحياة التي عشقها .. ويوم ان ظهرت النتيجة ، بلغ الجدل بين سمير ووالده هـذه الدرجة التي كان يتصـاعد اليها الخلاف بسرعة .. وانهالت في تلك الليلة ضربات الآب على وجه الابن .. ضربات قاسيـة لا ترحم .. ولم يتدخل أحد، بل ، لم يفكر أحد في التدخل ، فلقد كانت صيحات الآب وصرخات سمير ، وأصوات الصفعات والشتائم ، من علامات البيت المميزة ..

ولقد مضت الشهور ، مضت رهيبة مليئة بالعذاب ، لم يجد « سمير » كلية تقبل هذا المجموع الهزيل ، كما لم يكن فى نية الاب أن يواصل تعليم ولده... وكان اللقاء بينهما ، الآب والابن ، قد تحول الآن ليصبح عذابا يلاحق سمير أينما كان .. كانت الصفعات هى العملة المتداولة بينهما .. و .. و .. ولا أحد يدرى كيف فكر سمير فى السفر لا أحد يعرف ، على وجه يقيني ، كيف ومن أين جاءته الفكرة .. غير انه عندما أعلن فى البيت ، انه سوف يسافر الى أوربا ، جاءه الرد من والده : « فى ستين داهية ! »

وعندما وضع سمير قدمه لاول مرة على أرض المانيا الغربية . لم يكن يعرف كلمة واحدة من اللغة الالمانية.. غير أن هذه العقبة ، لم تكن توقف طموح سمير ، ولم تكن لتوهن من عزيمته .. كان ـ اذا ما مرت به الايام واقيمت أمامه العراقيل والعقبات ـ يتذكر مصر ، ويقترن ذكرها بوالده ، بالبيت ، بالسباب ، بالشتائم ، بالصفعات .. كان اذا ما تلفت خلفه ، لا يرى سوى الكراهية فيشد من قامته ، ويتابع السير ، أى سير.. ويتابع البحث ، أى بحث عن أى عمل ..

كانت تلك أياما غريبة ، أيام جاءت عليه كاد يموت فيها من الجوع ، وأيام جاءت عليه كاد يموت فيها من البرد .. ولكن : كان الموت ـ جوعا أو بردا ـ أرحم عنده من العودة ..

وبمثل هذا الاصرار ، وبمثل هذا التصميم أستطاع سمير ، بعد أن درج فى اللغة الالمانية خطوات ، أن يجد عملا فى احدى الشركات بمدينة ميونيخ ..

يومها .. استعاد نشاطه ، واستعاد « فهلوته » ، واستعاد ابتسامته ، واصبح معروفا عنه فى الشركة ،

انه نشيط ، حبوب يعرف كيف يقيم علاقات مع الآخرين وكيف يكسب ودهم ! !



في المطـار .. كانت اجراءات الجوازات قـد انتهت بالنسبة للمهندس « احمد عبد ربه » رجـل الاعمـال المصرى ، وكانت المضيفة «سوزى» قد تأخرت فىالطائرة لبعض اعمالها .. وعندما كانت تغادر مبنى المطـار كان احمد لا يزال هناك .. وعندما وقفت وصافحت سمير، كانت تبـدو وكأنها تعرفه منـذ فترة طويلة ، وتعـالت ضحكات سمير ، وتناولت أسئلته عن مصر وأحوالهـا وعن الركاب ولقد أعطته « سـوزى » كل ما يريد ، وحانت منه ـ أثناء الحديث ـ نظرة نحو المهنـــدس الشاب الذى كان الآن يخرج الى المدينة .. لم يكن سمير يعلم الآن ان « عمر حمـدى » قد « نقضه » من رأسه الى اخمص قدميه ، وان صورته قد انطبعت فى مخيلته محفورة بقوة التدريب على الحفظ ، ورغم ان سـمير راح يتحدث بالعربية بصوت عال حتى يلفت أنظـار هذا المهنـدس المصرى الانيق ، الا ان صـاحبنا مضى وكأنه لم يسمع شيئا .. كان يبـدو وكأنه يعرف طريقـه جيـدا ، لذا .. فلقد مضى الى خارج المطار لا يلوىعلى شىء ..

وعنـدما ركب « عمر » سيـارة تاكسى ، كان يعلم يقينا ان مسألة العثور على الفنـدق الذى يقيم فيـه سهلة كالبحث عن رقم مدرج فى دليل التليفون .. وكان الآن يستعد للجولة الخطرة ..



فى عام ١٩٦٧ كان قد مضى على « سمير » قرابة أربعة أعوام وهو يعيش فى « ميونيخ » واذا كان البعض قد

اقتربوا منه قبل ذلك بقليل ، فلم يكن من الصعب على أحد معرفة ميول سمير العدوانية تجاه بلده ..

مجهول ..

هو شيء بالفعل مجهول ولا يمكن تفسيره ..

وخلال هذه السنوات الاربع لم يزر سمير مصر مرة واحدة ، لا قبل النكسة ولا بعدها وخلال تلك السنوات لم يرسل سمير لاهله فى مصر سوى عدد يقل عن أصابع اليد الواحدة من الخطابات .. كان «الفراز» الاسرائيلي أمام خامة جاهزة تماما .. لم يكن هذا المجهول الذى يدفع شابا مثل سمير الى الحديث عن مصر بعداء هو معاملة والده له .. فالعلاقة بين الآباء والأبناء ، مهما بلغت حدتها ، تذوب الحدة فيها مع الايام ، تذوب مع الغربة ، تذوب مع الاحساس بالاستقلال .. ولقد كان سمير الآن مستقلا ، وكان غريبا ، وكان مغتربا لسنوات طويلة ..

ولقد تعود صاحبنا أن يجلس على مقهى اسمه « برنسيس » فى « ميونيخ » ، فى هذا المقهى كان يلتقى بالاصدقاء والصديقات .. بل كان يعقد الصداقات والصلات .. استخدم قدرته الفذة وخفة ظله فى ربط حياته بأرض ميونيخ وكأن فيها الخلاص .. وهل كان من الصعب على « هانز موللر » أن يعقد صداقة مع « سمير » فى ذلك اليوم من أيام عام ١٩٦٧ ؟ !

« هانز موللر » ، « ماكس » ، « جورج » كلها أسماء كانت معروفة تماما لرجال المخابرات المصرية وعيونهم المنبثة فى أربعة أركان الكرة الارضية ، أسماء تتغير لوجوه ثابتة لا سبيل الى تغييرها بتغيير المكان .. ولا أحد يدرى على وجه اليقين متى علمت المخابرات المصرية بهذا اللقاء .. انهم هناك ــ هؤلاء الرجال القابعون خلف

أسوار الصمت فى كوبرى القبـة ـ سيقولون لك ـ كما تعودوا دائما ـ ان هنـاك من جاء وابلغ • ان حرصهم الشديد على « التوعية » وتنبيـه النـاس • يتضـافر مع حرصهم على اخفاء « الاسلوب » الذى يعتبر قمـه العمم فى السريه والـكتمان . ولقـد كانت المعلومات المتوفرة لدى « هانز موللر » عن « سمير » كافية لأن يفاتحه فى الامر مع اللقـاء الثانى مبـاشرة .. لم يكن « سمير » فى حاجة الى تمهيد ، ولم يكن فى حاجة الى مصيدة تورطه .. قال له هانز فى اللقاء الثانى :

ـ هل تريد أن تـكسب مزيدا من المـال ؟ !

ورد عليه سمير وهو يتقافز فى جلسته :

ـ من يجرؤ على رفض المـال ؟ !

ـ أنا ضابط المخابرات الاسرائيلية !

ـ كم ستدفعون ؟ !

ـ حسب نشاطك وقدراتك !

وكان أمام « سمير » بعد هـذا الحوار السريع ، طريقان :

اما أن يجمع أكبر قـدر من المعلومات عن مصر من خلال المصريين الذين يقيمون فى المانيا أو يترددون عليها.

واما ان يقوم بعقـد صـلات مع المصريين الذين يجيئون الى ميونيخ لتجنيد الصالح منهم لحسـاب المخابرات الاسرائيلية !

و . . .

واختار سمير أن يسير فى الطريقين معا ؟ !

***

مرة اخرى نعود الى هـذا « المجهول » كامن فى نفس سمير كجرثومة متوحشة ..

لم تـكن مصر فى أواخر عام ١٩٦٧ تحتمل خائنا مثل

سمير .. ولقد كان سمير يعلم هـذا يقينا .. وأبدا ، لم تكن تلك الـكراهية التى تضخمت فى نفس ذلك الشاب المتفتـخ الفهلوى الحبوب القـادر على عقـد الصـلات والصداقات وحلب الهواء لبنا فى أرض الغربة .. أبدا لم يكن هـذا هو الدافع له للخيانة والاستهانة ، بل ـ وهذا هو المبكى فى الامر كله ـ والى الحماس فى العمل وتجنبه الراغبين فى الانزلاق وبذل الجهد فى تدمير الوطن بعـد كل ما أصابه ..

وتحت يدى « عمر حمدى » كانت كل المعلومات التى يقف لها شعر الرأس هولا .. كان الغرض من سـفرته تلك هو اصطياد سمير والمجىء به الى القاهرة لا أكثر ، ولم تكن هـذه عمليـة صعبة ، كان الصعب هو هـذا الذى وقع فى أيدى الرجال فى القاهرة .. واذا كان سمير يتقاضى مرتبا شهريا قدره ٥٠٠ مارك ، علاوة على ٣٠٠ مارك يتقاضاها عن كل مصرى يتم تجنيـده ، بخلاف المكافآت والمصـاريف ، فما الذى كان يدفع « الأب » أبو سمير الذى تجاوز الستين وأحيل الى المعاش ، ان ينزلق خلف ولده بمثل هذا الاستخفاف وهذه السهولة؟!

كان « عمر حمدى » يعلم الآن وهو جالس فى الفندق، ان « الأب » هو الآخر قد أصبح جاسوسا فى مصر ، وان ولده هو الذى جنـده .. كما كان يعلم ـ يقينا ـ ان سمير يجلس الآن فى « هول » الفندق وعيناه على المصعد فى انتظار المهندس « احمـد عبد ربه » ، الذى جاء الى ميونيخ لعقد صفقة تجارية لحساب مصانعه فى روض الفرج .. نفس الحى الذى نشأ فيه سمير وتربى ..

وخلال العامين المـاضيين استقبلت أوربا ، والمـانيا الغربية بالتحديد ، أعدادا من المصريين لم يسبق أن رأته المطـارات والموانىء .. كان المصريون ـ والشباب منهم

بنوع خاص ــ يرحفون الى الخارج بحثا عن شيء ما ، جاءتهم النكسة كصاعقة غير منتظره قصمت منهم الظهر فراحوا يبحثون عن السبب فى كل مكان .. ولقد كان من السهل على سمير أن يقف فى المطار كلما جاءت طائرة القاهرة كي « يلاقى » هؤلاء القادمين من أرض الوطن كان من السهل عليه أن يعقد الصداقات مع موظفى المطار حتى لايرتاب احد فى كثرة تردده عليه.. كان من السهل عليه ان يساعد المصريين الآتين بحثا عن عمل أو متعة ، وكان من السهل عليه أن يفتح مسكنه للذين لا يملكون اجر الفنادق المرتفع فى أوربا ، وكان من السهل عليه ان يرشد أولاد بلده الى المتاجر والملاهى و .. ودور المتعة التى انشأتها مخابرات اسرائيل فى طول أوربا وعرضها.. ومهما كان الامر ، فلو انك صادفت مصريا فى بلد غريب، فان حنينك الى الدم واللغة يدفعك الى وضع ثقتك فيه ومهما كانت حاجتك ، ومهما كانت رغباتك ، فلقد كنت دائما ما تجد سمير «جاهزا» تماما لتلبية أى شيء تريد، حتى ولو كان « لبن العصفور » ..



هبط « عمر حمدى » الى هول الفندق يحمل مفتاح غرفته ، وفى لمح البصر ، فى نفس اللحظة التى غادر فيها المصعد ، كان قد شمل المكان كله بنظرة سريعة ، وكان قد حدد ــ بالضبط ــ أين يجلس « سمير » . وعندما خطا نحو مكتب استعلامات الفندق ، كان يقيس ، باحساس اكتسبه بالتدريب المسافة التى تفصله عن سمير مع كل خطوة كان يخطوها ، وعندما سلم مفتاح غرفته واستدار ، كان يعلم يقينا انه سوف يصطدم بسمير ، فتعمد أن ينطق « متأسف » باللغة العربية ، وكأنه أخذ بالصدمة .. وكان فى هذا الكفاية ، كان فيه الكفاية

ليتهلل وجه سمير وهو يصيح مرحبا :
ـ متأسف .. الاستاذ عربي ؟ !
وهكذا القى « عمر » طعمه لسمير ... وبدأ يجذب السيارة ببطء وحذق ...



فجأة .. وعلى غير انتظار .. وكانت خمس سنوات أو ست قد انقضت منذ رأى سمير والده لآخر مرة في بيته الكائن بشارع الكركي بروض الفرج ... وجد سمير نفسه أمام أبيه في ميونيخ ..
ودون تمهيد بدأت المعركة ..
ـ انت ما تعرفش انى انحلت على المعاش ؟ !
ـ يا بابا ..
ـ ليه ما تبعتش فلوس علشان نعرف نعيش ؟ ! ..
ـ ماهو انت ...
ـ اختك بتتجوز .. أجيب منين علشان أجوزها ؟
ـ انت عاوز ايه ؟ !
ـ عاوزك تخلي عندك دم .. هو احنا مش أهلك .. هو أنا مش أبوك !
و .. واعطاه سمير ما أراد من مال ، فقط اعطاه المال ليرحل عنه ، ليتركه ، كي لا يذكره بالماضي ... واخذ الأب المال وعاد الى مصر .. لكنه عاد فأرسل يطلب مزيدا من المال ، ولم يرد سمير .. كانت حياته الجديدة قد امتصت كل جهده ، وكان قد استطاع أن يقدم للمخابرات الاسرائيلية عددا لا بأس به من العملاء . وكانت القاهرة في تتبعها لتلك الحركة النشطة ، ولذلك الشاب الذى أصبح وكأنه كرس حياته لخدمة العدو ، قد وضعت يدها على الخيوط جميعا .. كان ما فزع له الرجال الذين لا يعرفون الفزع .. هو انزلاق الأب العجوز

ويمثل البساطة التي يشعل بها الانسان سيجارته ، لم يجد سمير وسيلة يتخلص بها من أبيه ، الا بدفعه بنفسه ، الى يدى « هانز موللر » .

كان الأب قد استسهل السفر الى المانيا لمطالبة ابنه بالمال ، وكان الابن ، كلما ألح الأب ، يزداد ضـــيقا بمطالب ابيه .. وكأنما كان هذا « المجهول » قد أمده بقوة خارقة على الايذاء ، فلقد قدم اباه الى «هانزموللر» على انه صديق له ، ثم تركهما معا ومضى لعمل وهمى .

وكانت المفاجأة سارة لضابط المخابرات الاسرائيلى .

فما ان فاتح الأب فى الموضوع ، حتى رحب الاب ، واتفق معه على مرتب شهرى ، فوق مكافأة تصل الى ١٠٠٠ مارك لـكل خطاب يحوى معلومات هامة ....

كيف يمكن تفسير الامر ؟ !

هكذا كان « عمر حمـــــدى » يفكر وهو يجلس الى « سمير » فى بار الفندق بعد أن قدم كل منهما نفســه للآخر . كيف يمكن تفسير تكالب الأب على عمله بنشاط رهيب .. كان قبل مغادرته المـانيا قد تدرب على الكتابة بالحبر السرى ، والحصول على المعلومات باثارة الغير ، ووسـائل المناقشة والمراقبة والفحص .. وعندما عاد الى مصر اكتشف انه يستطيع ان يجنى الوف الماركات ببساطة لم تخطر له على بال... كان يجلس ذات مرة فى أحد المحلات فسمع شابا يتحدث الى حبيبته عن وحدة الصواريخ التى يعمل بها وعن أسلوب تشغيلها ، فـكتب هذا اليهم ، كان يركب الاتوبيس فيسمع من النـــــاس اشاعات ومعلومات فيكتبها اليهم ، كانوا يقولون له اكتب لنا بكل شيء مهما كان تافها .. فكتب وكتب وكتب ، حتى أسعار الطماطم كان يكتبها .. فهل كان يدرى قيمة هــذا بالنسبة للحرب النفسية الضـــارية التى كانت

اسرائيل تشنها علينا فى تلك الايام ؟.. لم يفاتح ابنه بما فاتحه فيه « هانز موللر » كما أن الابن لم يفاتح أباه فى طبيعة عمله ، كان كل منهما يعرف ما الذى يفعله الآخر لـكن أحدهما لم يصارح الآخر .. وهكذا .. هكذا وجد هـذا « المجهول » الـكامن كالجرثومة المدمرة بين الأب وابنـه ، حتى فى الخيانة !

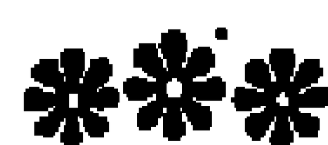
فى تلك الليلة كان المهندس « احمد عبد ربه » يدردش مع سمير حول مشروعاته .. وكان على يقين وهو يلقى بالطعم ، من الخطوة القادمة ، قال سمير :

ــ أنا أعرف واحد هنا فى ميونيخ ممكن يساعدك على الحكاية دى ؟ !

ابتسم « احمد عبـــد ربه » فى وقار ، ونفث دخان سيجارته وسأل سمير :

ــ عاوز كام كوميشان ؟ !

هكذا يتحدث رجل الاعمال .. وهكذا اطمأن سـمير تماما عندما سأله الرجل عن النسبة التى يطلبهـــا كسمسرة .. وهكذا تحدد موعد لـكى يقـابل « عمـر حمدى» ضابط المخابرات المصرى ، «هانزموللر» ضابط المخابرات الاسرائيلى ، للاتفاق على الصفقة !



هنا تكمن ذروة الخطر .. ولم تكن « اللعبـة » كلها سمير أو والده ، كانت اللعبة تضم عددا لا بأس به من الشبان الذين سقطوا فى أيدى سمير وهانز ، واذا كان البعض منهم قد عاد الى القـاهرة ليبلغ ويكمل حلقـة المعلومات التى توفرت لجهاز المخابرات المصرى ، فان البعض الآخر لم يفعل ذلك ، وكان « عدد » هذا البعض الآخر لا يزال غامضا لا يبين ..

وليس الذكاء من صـفات رجـل المخابرات المصرى

وحده ، والا كنا كمن يدفن راسه فى الرمال ويخلق حول هؤلاء الرجال اساطير لا ظل لها من الحقيقة .. ان بعضا من رجال المخابرات الاسرائيلية ، يتمتعون بقدرات غير عادية على هـذا النوع من المعارك التى يتقرر فيها مصير اخطر الامور .. ولقد كان « عمـر حمـدى » ضـابط المخابرات المصرى جاهزا تماما فى اليوم التالى وفى الموعد المحدد للقاء .. كان يعلم ان من سيقابله سوف يحسب بالدقة كلها حركاته وكلماته .. واذا كان هو قد تسلح بميكروفون صغير دقيق ليسجل الحديث مع جهاز فى حجم علبة الـكبريت ، فلقد كان يعلم يقينا أن خصمه قد فعل نفس الشىء وربما أكثر بما لايدريه عما يتفتق عنه الذهن البشرى من أجهزة شـديدة الحساسية والخطورة ..

كان الموعد فى المساء ، فى مقهى قلبـل الرواد خافت الضوء ..

كانا كثعلبين يستعدان للنزال ... كل الفرق بينهما ان الثعلب المصرى كان يعلم ماسيقوله الثعلب الاسرائيلى ، وكان خوفه من شىء واحد .. أن تبـدو عنه حركة ، أو تصدر عنه كلمة ، اذا ما وضعت تحت مجهر الدراسة والفحص ، كشفت من حقيقته ...

وتم اللقاء ..



اطلق « عمر حمدى » ضحكة مجلجلة سـعيدة وأنا أسأله عما كان يشعر به لحظتها تهدلت خصلة من شعره ــ الذى اصبح اليوم رماديا رغم أنه لم يصـل بعد الى الاربعين ــ فأزاحها بيده . نفث دخان سيجارته وقال :

ــ أبدا .. فى الحالات دى الواحد مننا بينسى نفسه ، بيبقى مهندس فعلا ، بيبقى « احمد عبدربه » أو بيبقى

رجل أعمال ، فى اللحظات دى بتحصل حاجه غريبة ، بيوصل خوف الواحد على البلد درجة بتنسيه نفسه !

كان « عمر حمدى » عندما تقمص شخصية المهندس « احمد عبد ربه » ، يعلم يقينا ان هناك من سيذهب الى مصنع البلاستيك الصغير فى روض الفرج ليسأل ، وليجد ان صاحبه هو المهندس « أحمد عبد ربه » فعلا، وان رجل الاعمال المصرى ليس موجوداً فى مصر ، بل مسافر الى الخارج ، الى المانيا بالذات ! !

ومنذ ما يقرب من ستة أشهر، كانت «بيوت الملذات» الاسرائيلية فى « ميونيخ » قد استقبلت عدداً غريبا من المصريين الذين كانوا يتلهفون على المتعة رغبة منهم فى التعويض .. كانت المعلومات التى وصلت الى القاهرة عن هذه « البيوت » الاسرائيلية تحوى أسرارا مضحكة مبكية .. ان بعض هؤلاء الشبان الذين اصطادهم سمير وقدمهم الى « هانز موللر » دخلوا هذه البيوت ، ووسط الاضواء الحمراء والشراب واللحم الابيض والنشوة فى ذروتها ، كانوا يعرضون عليهم أفلاما ملونة لشخصيات عربية فى أوضاع يندى لها الجبين .. وكان بعض هؤلاء الشبان يصدم وهو يرى رجلا له مكانته واسمه ومركزه هاربا كما ولدته أمه فى حضن امرأة ما .. ربما كانت هى هى نفس المرأة التى ترتمى فى أحضانه الآن .. كانوا — فى هذه البيوت التى انشأها جهاز المخابرات الاسرائيلى — يدمرون فى الشباب العربى كل احترام لبعض شخصياته .. من هؤلاء الذين دمرتهم هذه الافلام .. اثنان من الشبان كانت المخابرات المصرية تسعى وراءهما فى طول أوربا وعرضها ، بعد ان انزلقا ، وخانا ، وراحا يضربان الارض بحثا عن مأوى بعد أن انكشف أمرهما .

ولقد طالت المباراة بين « عمر حمدى » و « هانز

موللر » فى هـذا المقهى الخافت الضوء القليل الرواد فى احد شوارع «ميونيخ» الهادئة.. طالت المباراة وتعددت اللقاءات وخطا عمر داخل عرين الاسـد ، لـكنه كان يعرف مواطىء قدميه .. لم « يندلق » لـكنه أبدا لم يمانع شأنه شأن رجل الاعمال الشاب .. غير ان «هانز موللر» ، « اندلق » تماما ، وابتلع الطعم حتى نهايته.. كان هـذا عندما بدرت من عمر بعض المعلومات الهامة عن الصناعة فى مصر وكأنها جاءت عفو الخاطر، وسال لعاب الثعلب الاسرائيلى عندما راح المهندس « احمـد عبد ربه » يتحدث عن الاقتصاد المصرى حديث العارف بدقائق كانوا فى أشد الحاجة اليها ! !

وعندما حان موعد السفر الى القاهرة ، كانت هناك اتفاقات مبدئية ، لـكنها ليست نهائية .. وكان سـمير، فى وداع صيده العظيم فى مطار « ميونيخ » ..

وعندما أقلعت الطائرة من المطار وحلقت فى الجو،كانت حقيبة عمر السوداء الصغيرة تحوى الآن من الاسرار ما كان كافيا تماما .. وعندما نظر من نافذة الطائرة الى المدينة وقد لفها الضباب ، تنهد فى ارتياح ..

***

بعد حوالي ثلاثة أسابيع ، وصل الى سمير خطاب من المهندس « أحمد عبد ربه » ، وكان يطلب منه الحضور الى القاهرة لبحث بعض خطوات الاتفاق تمهيدا لتوقيع العقد ..

ولقد ظل « عمر حمدى » كمن يحبس انفاسه لاكثر من ثلاثة اسابيع أخرى .. حتى جاءته برقيـة تنبىء بموعد وصول سمير الى القاهرة !

فى المطار ، كان المهندس « احمد عبد ربه » فى انتظار سمير ، وكان هـذا قد اصطحب معه ــ لفرط الثقة فى

نفسه ـ شابين المانيين فتى وفتاة أرادا السياحة فى مصر لعشرة أيام ... ولقد قام «أحمد» بالواجب ، وتم بحث الخطوات بينه وبين « سمير » ، فتم الاتفاق تماما .. وعندما أبدى الجاسوس رغبته فى اصطحاب صديقه وصديقته فى زيارة للاقصر وأسوان ، حجز لهم «احمد» فى قطار الصعيد مقصورة كاملة ... ولقد سافر الثلاثة الى أسوان ، والى الاقصر ... وقضى الجميع وقتا خرافيا .. وبعد أسبوع ، كان القطار يتهادى بهم داخلا الى محطة القاهرة ..

وفى المحطة ، كان « احمد » فى انتظارهم ، لكنه هذه المرة لم يكن وحده .. كان معه عدد من الرجال ذوى الملامح الجامدة .. ولم يفهم الشاب الالمانى وصديقته شيئا مما كان يحدث أمامهما .. كان ما حدث هو أن طلب « عمر » من « سمير » ان يودع صديقته ففعل ، وسار بين الرجال طائعا فى صمت نحو سيارة سوداء اللون ، وكان يبدو شاحب اللون تماما .. أما هما ، فركبا سيارة أخرى أوصلتهما الى الفندق مع الاحترام الشديد .. والواجب .

***

فى أحد دهاليز مبنى المخابرات العامة المصرية ، كان سمير يسير صامتا ، كان الآن قد أيقن انه وقع ، فانهار تماما .. وعندما تقدم أحدهم الى باب احدى الغرف وفتحه ، دلف منه سمير ليجد والده قد سبقه اليها !

أفظع ما كان فى اعترافات سمير ، هى ما يتعرض له بعض المصريين فى الخارج ، فى بيوت المتعة التى أنشأتها اسرائيل خصيصا لاصطياد العرب ، واغراقهم فى الملذات ، وتجنيدهم ، أو على الاقل ، معرفة بعض المعلومات التى ينفلت بها اللسان أحيانا فى لحظات النشوة !.. ثم

تصويرهم عرايا ، وتسجيل احاديثهم الماجنة ! !

غير ان الافظع من هـــذا ، هو « المجهول » الذى بدا كامنا كالوحش الغامض فى نفس الأب والابن معا وقد كاد كل منهما يمزق الآخر فى لحظة المجابهة .. هــذا « المجهول » الذى لا يزال يجبر « عمر حمدى » حتى الآن ، بحثا عن هويته دون جدوى !

الساذج

منذ البداية ، كانت الاخطاء التى وقع فيها هذا الجاسوس قاتلة .. وكان من الممكن ان يتم القبض عليه ومحاكمته فى الشهور الاولى لبداية نشاطه الهام .. غير انه كان من السذاجة ، بحيث تركته المخابرات المصرية عشرة أعوام كاملة ، وهو يدبج التقارير ويراسل « الموساد » عبر جهاز اللاسلكى ، من قلب حى من اشد أحياء القاهرة ازدحاما .. ثم ، ولان حرب اكتوبر كانت مندلعة بالفعل ، قبضوا عليه !

فى النصف الثانى من العقد الخامس من هذا القرن ، برزت فكرة عقد مؤتمر للدول الافريقية الاسيوية ، الذى حقق أول اجتماع له فى باندونج ، نجاحا مذهلا، ومن خلال هذا المؤتمر ، الذى كان بمثابة نقطة تحول فى السياسة العالمية ، وبروز دور دول الحياد أو عدم الانحياز أو ما أطلق عليه فيما بعد ، دول العالم الثالث .. برزت قيمة مصر وأمكانيات قيادتها الشابة — فى ذلك الوقت — على مجابهة الاستعمار وتشكيل قوة دولية وضع لها كلا المعسكرين ، الشرقى والغربى ، ألف حساب ..

وكان ان اختيرت «القاهرة» لتكون مركزا للسكرتارية الدائمة للمؤتمر الافريقى الاسيوى واصبح لكل دولة

افريقية واسيوية مندوب دائم فى هذه السكرتارية ، وبالتالى فلقد كانت هذه السكرتارية تشكل مركزا هاما من مراكز الحركة السياسية فى العالم .

الامر المهم فى هذا الموضوع ، ان اسرائيل ـ فى تلك الايام ـ حاولت ان تنضم الى المؤتمر بصفتها دولة اسيوية . وكانت معركة انتصرت فيها الشعوب العربية، بل ، القيادة المصرية بالتحديد ، التى استطاعت بالدبلوماسية والاقناع ، ان تضع اسرائيل ـ لاول مرة ـ فى مكانها الحقيقى على خريطة العالم كدولة معتدية ومغتصبة لاراض لا تملكها ..

من هنا ، كانت أهمية الوصول الى قلب سكرتارية المؤتمر الافريقى الاسيوى ، ذلك ، ان ما كان يحدث من اجتماعات داخل السكرتارية، وماكان يؤخذ من قرارات ، كان بالضرورة ، يشكل أهمية خاصة بالنسبة لاسرائيل التى عزلت عن هذا العالم الذى حاولت فيما بعد التغلغل فيه .. بل ، والسيطرة على بعض دوله ..

***

كانت البداية هناك... فى باريس... بالتحديد ، عندما خطا نبيل خطوته الاولى الى بهو فندق جورج الخامس فى حى الشانزليزيه .. ورغم انه كان قد تألق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملبس جديد ، الا انمظهره كان يبدو شديد التواضع وسط ذلك الجو الفاخر المهول الذىاستغرقه حتىالنخاع منذ الدقائق الاولى..

كان نبيل واحدا من موظفى سكرتارية المؤتمرالافريقى الاسيوى الذين وقع عليهم الاختيار للسفر الى كوناكرى للتحضير للمؤتمر الافريقى الاسيوى القادم ، والذى كان سيعقد فى عاصمة غينيا ... لم يكن نبيل واحدا من نزلاء الفندق بطبيعة الحال ، فلقد كان ـ مع زملائه ـ

نزلون بأحد الفنادق المتواضعة فى العاصمة الفرنسية .. كان أمامهم يومان أو ثلاثة ، ثم يطيرون بعدها الى جنيف .. ثم كوناكرى .. وكانت هذه الايام الثلاثة ، كافية تماما ، لان تحدث البداية ..

غير ان البداية الاولى كانت بعيدة كل البعد ، كانت البداية عندما هاجر الاب اللبنانى الاصل من بيروت الى مصر ... كان رجلا تقيا متدينا ، يعمل ممرضا مع احدى البعثات التبشيرية ، لكنه فى مصر، فى السويس بالتحديد ، أحب فتاة مصرية فتزوجها ، وأقام فى مصر نهائيا ، وانجب ثلاثة أولاد وخمس بنات .. وكان نبيل واحدا من الاولاد الثلاثة !

وكما يحدث كثيرا فى الاسر المصرية ، بل ، كما حدث فى رواية « بداية ونهاية » لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ توفى الاب فجأة ، وترك عائلته بلا عائل سوى نبيل ..

كان نبيل يحلم بأن يدخل كلية الطب وان يصبح طبيبا ، غير ان امكانيات الاب الذى أنجب ثمانية أولاد يريد أن يعلمهم ، لم تساعده على ذلك ، فكان أن ادخل نبيل مدرسة التجارة المتوسطة ، وتخرج فيها . وكان من أول الموظفين الذين عينوا فى سكرتارية المؤتمر الافريقى الاسيوى التى انشئت فى عام ١٩٥٨ ، ولم يمض عام حتى توفى الاب ، واصبح نبيل هو العائل الوحيد للأسرة ..

ببساطة ، كان نبيل يعمل ليل نهار ، كان يعمل بالسكرتارية فى الصباح ، وفى مكتب للآلة الكاتبة فى المساء ، حتى اذا ما جاءت رحلة كوناكرى عام ١٩٦٠ ، وكان طريق السفر اليها غير القاهرة ، باريس ، جنيف كوناكرى .. كانت هذه هى فرصة العمر .. سافر

اذن ، وهو لا يدرى ما يخبئه له القدر ، سافر وهو لايعلم ما تخبئه له نفسه ! !

كان على الموظفين أن يمكثوا فى باريس بضعة أيام ، ولم يكن أمام نبيل ، الذى تعود أن يكون وحده دائما ، سوى ان ينزل الى شوارع باريس ، يتسكع ويشاهد ، ويقف امام الفترينات مبهور النفس بما يرى من أضواء وغنى .. حتى كانت ليلة ..

ليلة كان يقف فيها أمام احدى الفترينات التى تعرض من الملابس ما يسيل له لعاب أى شاب من أبناء الدول النامية ، وتصادف أن وقف بجواره شخص له مظهر الاجانب ، وان كانت ملامحه تشى بشىء من الشرق .. وحدثه الشخص بالفرنسية ، وارتبك نبيل ، فهو لايعرف الفرنسية وان كان يجيد الانجليزية ويجيد كتابتها على الآلة الكاتبة . وما أن تلعثم ، حتى ضحك صاحبنا هذا وحدثه بالعربية ..

صاح نبيل : « حضرتك بتتكلم عربى ؟ ! »

ورد الشخص : « أنا اسمى حسن ! »

وتصافح الشابان فى حرارة ، وكانت سعادة نبيل ، وهو يسمع اللغة العربية ، باللهجة المصرية الخالصة ، فى قلب باريس وأضواء باريس ، تفوق الوصف ، كان وكأنه عثر على كنز !

فى تلك الليلة ، قضى نبيل وقتا طيبا ، كان حسن هذا مصريا يدرس الطب فى باريس ـ هكذا قال له الشاب ! ـ كان اسكندرانيا قحا ، ينطق الحديث مسبوقا بنون الاسكندرية الشهيرة ، ويمط الحروف كأى ابن بلد من الانفوشى أو السيالة .. وفى الليل ، وبعد كأس أو اثنتين .. كان الحنين قد استبد بحسن ، فراح يسأله عن مصر وأحوال مصر .. راح يشكو له الغربة

والوحدة والشوق .. ومما لاشك فيه ، انه رغم تأثر نبيل الشديد بما كان يسمع ، الا انه كان سعيدا غاية السعادة ..

في آخر الليل .. سار معه حسن متسكعا في شوارع الشانزليزيه الباهرة .. وأوصله حتى باب فندقه المتواضع .. ولكن ، على موعد للقاء في الغد .. في المساء ، في نفس البار الذي كانا يجلسان فيه ..

***

كان كتوما بطبعه .. كان منطويا ينظر الى زملائه من خلف غلالة المسئولية التي ألقيت على عاتقه .. في تلك الليلة أمطره زملاؤه بالعديد من الاسئلة ، كانوا معا ساعة أن خرجوا للتسكع فأين اختفى ، ولم يكن كاذبا عندما أخبرهم انه « تاه » ، لكنه لم يذكر أين كان ، ومع من كان ! ..

كان حسن بالنسبة اليه كنزا أراد الاحتفاظ به واخفاءه ، ربما ، لان هذا كان جزءا من تكوينه ، وربما ـ وهذا هو الارجح ـ لان حسن أسر اليه أن يكتم الامر ، فلقد أحبه وهو يريد أن يلتقي به وحده .

صدفة هي أم ان الامر كان مدبرا أن يكون حسن بالذات ، طالبا مصريا يدرس « الطب » حلم الاحلام والامنية المتبددة مع الفقر وقلة الحيلة .. لا أحد يدري غير ان الامر ـ دون أدنى شك ـ كان له وقعه العنيف على نفس نبيل .. ولقد كان في الموعد المضروب تماما ، يقف أمام البار الذي اتفق مع حسن على اللقاء فيه .. كان مفعما بالسرور دون شك .. فلقد وعده حسن أن «يعطا» معا هنا وهناك ، ان يريه باريس وخفايا باريس .. غير ان أمرا كهذا ، لا يمكن أن تكتمل بهجته قبل أن يشربا كأسين في مكان يستطيع حسن أن يدفع فيه ثمن

الـكاسين .. ففى باريس تستطيع أن تشرب كأسا وتدفع فيه فرنكا واحدا ، وتستطيع أن تشرب نفس الـكأس ، فى مكان آخر ، وتدفع فيه ما يوازى مرتب شهر كامل !

فى البار ... جاءت جلستهما بجوار جورج ...

هنا ، ليس هناك مجال للتخمين . هنا ، تصبح الخطوة والحركة ، بل وحتى الـكلمة ، مدروسة مرسومة ومعدة بدقة وذكاء لا سبيل الى النفاذ منها ..

واذا ما « احلوت القعدة » ، وتبع الشـابان كأسا بكأس ، واذا ما كان جارك وحيدا يشرب هو الآخر ، واذا ما أفلتت منك كلمة بصوت عال ، فلا بد وأن يتصل الحديث .. ولقد اتصل ، ومال « جورج » عليهما بكلمة ورد عليه حسن بكلمة .. لاننا : « هنا فى أوربا الناس بسيطة مش معقدة زى عندنا » !

نفس الـكلمات ، ونفس الاسـلوب ، ونفس الذهن المخطط الذى يعرف كيف ينفذ من نقط الضعف عند الصيد الجديد .. واذا كان حسن قد « لضم » مع جورج ، فلا بد وأن يشترك نبيل فى الحديث ، واذا كان الحديث قد امتد فلم يجلس جورج وحده ، لم لا ينتقل اليهما .. ولقد انتقل جورج وجلس معهما ، وقدم لهما نفسه كصحفى فى احدى وكالات الانباء .. وما أن ذكر نبيل وظيفته فى المؤتمر حتى تهلل وجه جورج .. لقد كان يزمع السفر الى كوناكرى ، لتغطية أنباء المؤتمر للوكالة ، كان يزمع السفر رغم ان مشاغله فى باريس كثيرة ومتشعبة ، رغم أن مصالحه كانت ستضار .. فلم لا يقوم نبيل عنه بهذه المهمة لقاء أجر ؟ !

ومن تحت المائدة غمزه حسن وهو يقول لجورج :
« تدفع كام ؟ ! »

وفى لحظة وجد نبيل فى يده مائة فرنك مصـــاريف البريد ، وعنوانا فى الشانزليزيه ووعدا بالحسـاب يوم ينتهى المؤتمر ، ويمر بباريس فى طريق العودة الىالقاهرة

وعندما هم نبيل بالحديث ، ولا يدرى أحد ما الذى كان ينوى ان يقوله ، عاد حسن مرة أخرى فغمزه من تحت المـائدة .. وزيادة فى الاحتياط ، قدم له جورج رقم تليفونه ، طالبا منه الاتصال به كلما مر بباريس .. ثم ودعهما وانصرف ..

فىالليل ، وأثناء العودة ، كان نبيل يشعر بالسعادة ، فلقد كسب مائة فرنك دون ارتبـاط ، دون وعد .. وكان حسن يشجعه قائلا ان باريس شىء والقاهرة شىء آخر .. انهم فى اوربا يعطون لـكل جهد ثمنه ، ولـكل عمل أجره .. ولم يكن مطلوبا من نبيـل سـوى شىء واحد ، أن يرسـل لجورج على العنوان المذكور ، أخبارا من تلك التى تصدرها سكرتارية المؤتمر لتقـــدمها للصحفيين .. والتى كان يكتبها بيديه على الآلة الكاتبة لتطبع بعد ذلك على آلة الرونيو ، فيوزع نصفها ، ويلقى النصف الآخر فى سلة المهملات !

***

فى كوناكرى لم يحدث شىء له قيمة ، عقد المؤتمر ونجح ، وكان نبيل طوال بقائه هناك ، يكتب خطـابات الى جورج ، يضمنها تلك الاخبـــار التى تنشر فى كل صحف العالم .. لم يكن صحفيا ليعلم ان مثل هـذه الاخبـار اذا ما أرسلت بالبريد الى وكالة أنباء بالذات، تصبح شيئا لا قيمة له ، بل ، اذا ما وصلت الى وكالة الانبـاء متأخرة دقيقة واحدة ، أصبحت خبرا محروقا لا يساوى ثمن الحبر الذى كتب به !

فى كوناكرى لم يحدث شىء له قيمة .. لم يخبر نبيل

غير انه عندما عاد الى باريس ، وكان هـذا فى فبراير عام ١٩٦٠ ، كان أول ما فعله ان طلب رقم « جورج » وظل جرس التليفون على الطرف الآخر يدق دون رد .. مرة ومرتين وثلاثا ، دون جدوى ..

لحظتها تذكر نبيل شيئا غريبا ..

لحظتها تذكر نبيل ان « حسن » لم يعطه عنوانا له ولم يعطه رقم تليفونه ، ولم يعطه اسم الـــكلية أو المستشفى التى يدرس فيها .. لحظتها تذكر نبيل ان « حسن » لم يكن سوى « حسن » ولا شيء آخر ، وانه واحد من أهل باريس .. واحد من الذين يعيشون أحدا بما يفعل فلم يكن فيما كان يفعل شيء محرم .. فيها ، فأين حسن ؟ !

ولقد مرت على نبيل لحظات صعبة ، مريرة ، كان تليفون « جورج » — رغم كل المحاولات التى بذلها — لايرد ، لا شيء سوى جرس يدق ويدق ويدق بلامجيب مرات ومرات وعشرات المرات دون جدوى .. وأخيرا أخيرا لم يجد أمامه سوى العنوان الذى كان يرســل عليه الخطابات ، فبحث عنه ، حتى وجده ..

وكانت الصدمة مروعة ..

كانت صدمة اهتز لها نبيل حتى الأعماق ..

كان العنوان لشركة من شركات السياحة ، لم يكن وكالة انبـاء ، ولم يكن منزلا .. فتح الباب الزجاجي للشركة ، وتقدم من الفتاة الشديدة الجمال الجالسة الى المكتب الانيق ، تقدم اليها مترددا ، وهمس سائلا عن : « مستر جورج ! » .. فأجابت الفتاة ان لا أحد هنا يحمل اسم جورج ، حاول أن يفهمها انه كان يرسل خطاباته من كوناكرى الى جورج على هـذا العنـوان فتبدت الدهشة فى عينى الفتاة ، وعندما ألح ، أطلقت

عليه من عينيها الخضراوين نظرة ، نظرة واحدة كانت كفيلة بأن تلقى به الى الخارج ! !

***

هكذا وجد نبيل نفسه ضائعا تماما ... هكذا تبددت الاحلام التى حرص حرصه كله على الا يذكرها حتى لنفسه ، كانت الاحلام تبنى قصورا فى الخيال ... وان يترك عمله كتايبست وأن يصبح صحفيا خطوة نحو الهدف ، وان يظل كاتبا على الآلة الكاتبة ويأتيه دخل يساعده على الحياة وتربية اخوته ، وان يتفرغ للمذاكرة بعد الظهر بدل الانحناء على آلة كاتبة أخرى .. حلم طالما تمناه .. وان .. وان .. وان

ولكن ها هى الاحلام تتبدد فى مثل لمح البصر ، وكان كل شىء ما كان ، كان حسن ما كان ، وكان جورج ما كان سوى أضغاث هلوسة كأس شربها ذات ليلة فى بار متواضع بحى الشانزليزيه .

***

عاد الى الفندق محطم النفس تماما ، يائسا ، مهموما ، ضيق الصدر .. غير انه ما كاد يستقر فى غرفته ، حتى استدعى لمكالمة تليفونية ..

لاول وهلة أصابه الارتباك ، وللوهلة الثانية تذكر « حسن » ، وفى الوهلة الثالثة كان يقفز الطريق حتى التليفون ، وما أن وضع السماعة على أذنه ، حتى سرى فى الاسلاك صوت « جورج » ، جورج ، جورج نفسه .. بل الاكثر من ذلك انه كان يعتذر ، أن الفتاة لا تعرفه لانها حديثة عهد بالمكان ، جورج ، جورج هو الذى يطلب لقاءه فلم يتردد .. وقبل ، وانطلق لملاقاة المصير .. الامل ، الهاوية التى كانت تتفتح تحت قدميه وكان يسعى اليها !

يا للاحلام عندما تتلون بألوان الطيف السبعة فتحمل الانسان على جناحيها الى جنة موهومة.. يا للثقة تعود فتسري فى نفس الانسان فتسكره بخمر اقوى من الخمر .. واذا كان جورج يجلس الآن أمامه ، وجها لوجه ، عينا فى عين ، واذا كان يناقش خطاباته وأخبـــاره خطابا خطابا وخبرا خبرا.. اذا كان يثنى عليه ويشكره .. فـكيف يتعامل مع اناس لهم مثل هذا القدر من الشرف ؛ قال هذا لنفسه عندما قال له جورج انه أخبر رئيس التحرير بأن نبيل هو صـــاحب الاخبـــار ... وكيف ، كيف يمكن للحظ ان يكون بهـذا القـدر من الـكرم ؛ وجورج يخرج من جيبه ألف فرنك يعطيهـا لنبيل ثمن جهـده .. وكيف ، كيف يصدق انه على موعد معه فى اليوم التالى ، ان هناك اتجاها فى الوكالة لتعيينه صحفيا ، وان الامر فى يد مجلس الادارة الذى سيجتمع فى الغد ليقرر مصيره ؟ !

وكيف يأتيه النوم ؟ ! .. كيف ؟ !

ليلة هـــذه ام حلم الاحلام يرسله القدر على طبق الامانى خالصا .. كان احساسه بالاشياء غريبا ومثيرا، واذا ما وافق مجلس الادارة فلســوف يدخل امتحانا يضم رئيس التحرير وبعضا من أعضاء المجلس، وليست مجالس الادارة فى أوربا مثلها مثل هذه التى فى مصر.. ان الموعد موعد ، والاجتماع لابد وأن يتم كل يوم ...

وفى الغد .. الغد الذى يأبى أن يأتى . سوف يعرف مصيره . وأيا كان الامر، ففى جيبه ألف فرنك حقيقة ، اشترى منها ، وأنفق بعضها . وفى بعض الاحيـــان يصبح الواقع أزهى من الاحلام ..

***

أعطوه الامل ، ثم تركوه معلقا ..

رفعوه الى قمة الاحلام ، ثم تركوه يهوى بلا معين..
وفى لحظة اليأس العظمى ، تمتد اليه اليد عبرسلك التليفون لتنتشله ..

وهدفه هنا تصبح الفريسة سهلة المنال، طرية اللحم بعد أن طهوها على نار القلق المدمر ...

الغريب .. الغريب الغريب .. ان نبيــل ــ أبدا ــ لم يسأل عن « حسن » ..

***

وهكذا جاءت البداية .. عنــدما التقى به فى ذلك البار المتواضع ، وزف اليه خبر موافقة مجلس الادارة على تعيينه ، ثم منحه خبرا أعظم ... انه على موعد مع رئيس التحرير فى اليوم التالى ، فى بهو فندق « جورج الخامس » .

ودق قلب نبيل .. وهتف : « جورج الخامس »؟!

ورد جورج ساخرا : « وأين تريد أن تقــابل رئيس التحرير ؟ ! »

وقبل ان ينطق نبيــل ، كان جورج يقوم بما كان يدور فى خلده ، وسرعان ما دفع الحساب ، واصطحبه معه الى أحد محلات الملابس، واشترى له بذلة وقميصا ورباط عنق وجوارب و ... وحتى ملابس داخلية .

وكان نبيل مستسلما تماما .. كانت الفريسة قــد أصبحت طيعة ومطيعة .. ولم يكن هــذا الذى يحدث مجرد تصرفات عفوية ، لم يكن نبيل يعلم ، ان كل حركة كل سكنة ، كل خطوة خطاها ويخطوها كانت توضــع تحت مجهر أعين مدربة تدريبا عاليا ... ولم يكن يعلم ، ان انهياره قد وصل الى علمهم قبل أن يصل الى علمه، ولم يكن يعلم ان استسلامه هذا ، كان دليلا قادهم الى قلب قلبه ، الى نقطة ضعفه .

وهكذا وجد نفسه يخطو الى « بهو » فندق «جورج الخامس » ، ورغم انه كان قد تأنق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملابس جديدة ، الا ان مظهره كان يبدو وسط الاضواء متواضعا .. كانت قدماه تغوصان فى أرض شديدة الليونة ، سجاد كالحلم ، جدران كالسراب ، ثريات كالنجوم ، اناس كالخيال ، نساء كحوريات جنة يحلم بها الانسان منذ ان كان .. ولكن، ها هو ، ها هو بلحمه ودمه فى فندق جورج الخامس يقدمه جورج لثلاثة : مستركنجز لى - ومسترستانلى، ومستر... وضاع اسم الثالث وهو يرى الرجال الثلاثة وكل منهم يمسك سيجارا يصل ثمنه الى مرتب عشرة أيام .. وبدأ الحديث ، وبدأت الاسئلة ، وبدأ نبيل يجيب .. و .. وكم مضى من الوقت ، لايدرى، لايدرى سوى ان مستر كنجز لى قال له فى النهاية..

- مبروك ! ..

ساعتها ، كاد نبيل يبكى من الفرح ..

***

قبل أن ينفض الاجتماع . أصدر مستر كنجز لى أمره الى مستر « ستانلى » بأن يتولى مسئولية نبيل .. هنا كانت قد انتهت مهمة « جورج » كما انتهت من قبلها مهمة «حسن» ... واخرج ستانلى قلما وورقة وكتب نبيل : « أقر أنا نبيل ... بأنى قد تعاقدت مع مستر « ستانلى » للعمل فى المجال الصحفى ، وذلك تحت الاختبار لمدة عام كامل ، وبمرتب شهرى قدره خمسون دولارا » .

ووقع نبيل ، وودع الرجال ، وكان على موعد مع ستانلى فى اليوم التالى ..

من حسن الحظ ـ ! ! ! ـ ان ستانلى كان يجيد العربية .. فى اليوم التالى سأله ستانلى :

ـ انت نازل فين ؟ ! ..

وعندما عرف اسم الفندق ، أبدى امتعاضه ، أن الصحفى الذى يعمل معهم ، لابد وان يكون مظهره مناسبا لمكانة الوكالة .. وانتقل نبيل ـ مبهورا ـ الى فندق فاخر ـ وفى غرفة هذا الفندق الفاخر، التى كانت معدة من قبل اعدادا كاملا ، جلس ستانلى الى نبيل ..

ـ تعرف تصور ؟ ! ..

وارتبك نبيل ...

ـ ازاى تبقى صحفى ولا تعرفش تصور ؟ !

وبدأ تدريبه على التصوير ، بدأ يدربه على تصوير الاشخاص ، ثم الاماكن ، ثم الاشياء .. كان التدريب يتم خطوة بعد خطوة ، وكان نبيل ينزلق خطوة بعد خطوة ، وكان موعد السفر يقترب ، والتدريب الشاق يأخذ اغلب ساعات اليوم ، وكيف يثبت الكاميرا ، وكيف يصور المستندات ، وكيف وكيف وكيف ... وكان نبيل يستوعب ، تحول ذهنه الى جمرة متقدة .. ولكن .. كان ثمة سؤال وجهه نبيل الى «ستانلى» :

ـ الاخبار ؟ !

ـ مالها ؟ !

ـ ابعثها فى برقيات والا فى جوابات ؟ !

وخجل ستانلى ، كان نبيل ساذجا دون شك ، لم يكن يعرف ان البرقية من الممكن ان يقرأها أى من موظفى البرقيات ، وانها من الممن ان تتسرب الى الصحف وتصبح ، قبل ان تصل اليهم ، بلا قيمة ..

ـ يبقى ابعتها فى جوابات ! !

ومرة أخرى يبرهن نبيل على سذاجته .. ان ما يحدث للبرقيات من الممكن أن يحدث للخطابات ...

ـ طب العمل ايه ؟ !

واذا كان الخبر الصحفى يصبح سرا للجريدة أو الوكالة او المجلة ، فان للسرية وسائل سرية .. ان لها حبرا سريا عليه أن يتدرب على الكتابة به ! !

وتحمس نبيل ، وتدرب ، ليلة بعد ليلة ، ان كل شىء يجب ان يظل على الكتمان .. حتى اذا جاءت الليلة الاخيرة ، تسلم نبيل كاميرا « زينيت » كما تسلم كيسا جلديا به جيب سرى وضع فيه معدات الحبر السرى .. و .. وقبل ان تمتد يده لمصافحة ستانلى جاءته المفاجأة ..

لقد رفعوا أجره من خمسين دولارا فى الشهر ، الى مائة دولار كل شهر !

ولم يصدق نبيل اذنيه ، ولكن .. كان عليه قبل ان يسافر ، ان يفتح حسابا سريا فى أحد بنوك جنيف، وكان عليه ان يعطى لستانلى رقم الحساب السرى ، ليضع له النقود فيه ..

وكان آخر ما أخذه نبيل من ستانلى ، هو العنوان الذى سيرسل عليه خطاباته ... وكان فى الدانيمارك !

***

كانت هذه هى البداية ، ولا أحد يدرى على وجه اليقين متى وضعت المخابرات المصرية يدها على أول الخيط ، لا أحد يدرى فهذا ـ عند هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت ـ هو قمة السرية ، غير ان الذى عرفه نبيل عن يقين انه كان ساذجا ، وانه لفرط سذاجته ، تركوه ثلاثة عشر عاما كاملة ، وهو يرسل تقارير توضع باستمرار تحت يده ، تدسها عليه

المخابرات العامة المصرية بأسلوب دقيق لايمكن كشفه.

كان الامر يتطور يوما بعد يوم ، لم يعد المطلوب من نبيل اخبارا صحفية ، بل تحول ، بعد أن قبض الكثير من المال ، وبعد أن ارتفع أجره الى ١٥٠ دولارا فى الشهر ، الى منظمة لمحاربة الشيوعية ..

ولم يعد المطلوب منه أخبار السكرتارية فقط ، بل اصبح المطلوب منه ان يعرف علاقات الاعضاء بعضهم ببعض ، كيف يتعاملون ، وكيف يتصرفون وماذا يكتبون ، و .. و .. والتحق نبيل بكلية التجارة بجامعة بيروت حتى يسهل عليه السفر ، وسافر الى بيروت ، وطار منها الى أثينا ، والتقى ستانلى الذى سلمه الى بيتر .. ودربه بيتر على قراءة «الميكروفيلم» وهو هذا الفيلم الذى لا تتعدى مساحته رأس دبوس، ويوضع تحت ورقة البريد أو فى ثنايا المظروف .. ثم طلب منه ان يتوسع ، أن يجمع أخبارا عن الجيش ، والحالة الاقتصادية .. ويسأل نبيل ويأتيه الرد بأن هذه المعلومات مطلوبة لمنظمة حلف الاطلنطى ، ويسافر الى بيروت، ومنها الى أثينا ، ويلتقى ببيتر الذى يسلمه الى شخص آخرهو«تونى » .. وكان «تونى» مختلفا، كان جادا متجهما :« سيبك من المؤتمرالافريقىماتبعتش عنه حاجة الا اذا كانت مهمة جدا ، عاوزين أخبار عن الجيش ، عن العرب ، عن اتجاهات الرأى العام»

وقبل أن يسأل نبيل ، يقرر تونى أن مرتبه ارتفع مرة ثالثة الى ٢٠٠ دولار فى الشهر..

ثلاث سنوات قضاها نبيل مع تونى ، ثلاث سنوات كان يسافر فيها للدراسة أو للسياحة أو مع المؤتمر الافريقى الاسيوى ليلتقى بتونى .. تماما ، كما حدث فى رحلته الى الهند عندما التقى به تونى فى نيودلهى ليعطيه

المزيد من المعلومات وكان هـذا فى عام ١٩٧٠، ثم رحلته فى عام ١٩٧٢ ، عندما خطا خطوته الاخيرة ، واصبح جاسوسا مدربا على التقاط الرســـائل اللاسلكية وارسالها فى نفس الوقت .. وتعلم نبيل الشفرة ؛ وكان كتاب الشفرة احدى روايات « أجاثا كريستى » ... كان نبيل ينجح فى علاقته بهم ، وينجح فى دراسته ، ويفشل فى حيـاته : خطوة بعـد خطوة ، وبلغ رقم ما تقاضاه منهم ٣٥ الف دولار ، كان خاطبا لفتاة تركها ، واصبح خاطبا لفتاة أخرى فشلت علاقته بها ، وانهالت عليه المكافآت .. كانت المعلومات المدسوسة عليه دقيقة الى حد ان خدعت مخابرات اسرائيل .. وكان — فى احد لقاءاته مع تونى — يتحدث عن المنظمة التى يعمل لحسابها عندما سأله « تونى » بجفاء :

— منظمة ايه ؟ ! .

وقال نبيل :

— منظمة حلف الاطلنطى !

فرد عليه ستانلى :

— نبيل .. انت عارف انك بتشتغل مع اسرائيل ، اللف والدوران مالوش لازمه !

و .. لم ينطق نبيل !

***

فى يوم ١٤ نوفمبـــر عام ١٩٧٣ قبض على نبيل ، واعترف ... صرح مسئول فى المخابرات المصرية : « أن كان تحت السيطرة الـكاملة لمدة عشر سنوات ! »

وعندما علمت خطيبته الثانية بالامر قالت :

— لو كانت دى قضية عادية ، ما كانش ممكن أسيبه لـكن .. لـكن دى خيانة ..

ثم نزعت الدبلة ..

الصعود إلى الهاوية

« هــذه قصــة هزتنى لشهور طويلة ، وأقضتنى ليالى عديدة ، كل ما أبغى قوله عنهــا ، انها لا تحوى شيئا من الحقيقة ، كما انها لا تحوى شيئا من الخيال! »

الألم والعذاب واللون الاسود يلون كل شيء فى الدنيا، طــار « رمزى » دون ســابق انذار .. يوم تقدم الى خطبتها أحست وكأن القدر يعطيها كل ما تريد ، شباب ومال وجمــــال ، هكذا كانت تردد أمها دائما عنه .. رآها ذات يوم لا تدرى أين ، لــكنه تذكر يوم رأته لاول مرة ، كان أنيقا بلا اســفاف ، وكان رقيقا رقة رجل يعرف كيف يعامل امراة .. طلبها للرقص فلبت وقد كست وجهها حمرة ســعادة بلا حــدود .. على أنغام الموســيقى كانت ترقص معه فوق أرض صنعت من سحاب ، زرقة السماء فى عينيه ولون الذهب فى خصلة شعره النافرة الى جبهة توحى بذكاء وقاد .. قبل ان تحتويها ذراعاه كانت تعرف من هو رمزى السيــد ، رجل أعمال فى الثلاثين من العمر ، يقضى نصف حيــاته متنقلا بين بلدان العالم ، والنصف الثانى فى ادارة مكتبه الانيق للاســتيراد والتصــدير ، طلب منها موعدا فلم تستطع الرفض ، أعطته رقم تليفون البيت ، وأعطاها

كارتا به أربعة أرقام ، وكتب لها الرقم الخامس السرى، حيث تستطيع ان تجده دائما .. وليلتها ، ليلتهـــا احتضنت وسادتها وغابت مع الاحلام ..

عندما تقدم لخطبتها صاحت فيها أمها :

ـ وده عثرتى عليه فين ياعبله ؟ !

عبله كامل ...

هذا هو اسمها الذى اذا تردد فى كلية الآداب اقترن بالنبوغ والعبقرية ..

عبله كامل ...

لا تدرى من أين جاءها هـذا الذى يتحدثون عنه من اتقاد الذهن وحضور البديهة . طالما جلست الى نفسها وتساءلت ، من أين؟.. والى أين؟.. سر الاسرار أم قدس الاقداس أم حرم الشيطان كان يسكن فى عقلها يوم وضعت الدبله فى اصبعها ابتسمت ساوى ، صديقة العمر ورفيقة الصبا ومدارج الطفولة .. وقالت :

ـ ربنا يسعدك يا عبله .. ربنا يسعدك !

كان فى الصوت رنة حسد أم كانت نغمة اشفاق هى! لا تدرى ، ولم تكن تريد أن تدرى .. كل ما تعرفه انها كانت تنتظر دقة التليفون وصـوته يدعوها للقاء ، كانت ترتمى فى أحضانه فتستعيض بشفتيه عن الدنيا وما فيها ، وبجواره ، فى السيارة حيث الراديو والريكورد والبيك آب والتكييف صـيفا وشـتاء ، عرفت كيف تستمع الى الاغانى لاول مرة ، تذوقت طعم «أم كلثوم» و « عبد الوهاب » ورات وجه الدنيـــا الجميل فى ابتسامته .. وتجرى الايام ، تجرى تجرى تجرى ، وكانت تجرى معها دون أن تلهث ، حتى كان هـــذا اليوم .. حتى كان ؟ !

راحا يضحكان فى السيارة من أعماق قلبيهما ..كان يردد أسماء المحلات فى القاهرة محلا محلا ، كانا يريدان شيئا جديدا فاذا بهما وطئا كل مكان وذهبا الى كل مكان .. انحرفت السيارة وراحت تجرى على كورنيش النيل فلم تسأله الى أين ، وقفت أمام عمارته وكانت تعرف انه هنا يسكن، نظرت اليه فأطلت عليها ابتسامته كالحلم .. فتحت باب السيارة وراحت تتقافز بجواره الى حيث المصعد ، وفى المصعد احتواها هذا الدفء الذى يسرى فى العظام فينحدرالعمر بما فيه.. وعندما خطت خطوتها الاولى الى داخل المسكن الانيق ، دار راسها .. دار .. دار ، دار قبل الموسيقى والكأس وأحلى رقصات العمر منذ المهد حتى اللحد ..

نظرت اليه قبل أن يغادرا البيت ..

ـ مالك يا عبله ؟

ـ رمزى .. مش عارفه ، وبعدين ؟ !

ـ فيه ايه يا عبله ؟ !

ـ رمزى .. احضنى !

وضمها اليه ، احتواها بين ذراعيه ، لم تكن خائفة .. أبدا هى لم تخف مما حدث .. فى أذنها انسالت كلماته كالنسيم العطر :

ـ هو الجواز ورقة يا عبله .. ما احنا متجوزين؟ !

كانت تعلم يقينا هذا ، كانت تعلم انه على حق وكانت تؤمن بما يقول ولم تكن تشك لحظة ، لحظة واحدة فيه كانت هى اختياره ، كما كان هو اختيارها فمن أين يأتى الغدر أو الخيانة ..

وفى السيارة كانت الدنيا قد عادت كما كانت ، ملونة نعم ، لكن الألوانها طعم الحقيقة ، ساد بينهما الصمت فلا كلمة ، ضغط على زر فانبعثت الموسيقى تسرى

فى جو السيارة الدافىء .. احست بنظراته تقبــــل وجنتها فارتجفت .. همس :

ـ مالك يا عبله ؟ !

نظرت اليه وتداخلت فى نفسها وأسندت رأسها الى المقعد وقالت :

ـ عارف يا رمزى ساعة ماركبت العربيه حسيت بايه !

وانتظر أن يسمع دون ان يسأل :

ـ حسيت انى مراتك !

وضحك رمزى السيد ، وضحك وهو يضغط يدها فى كفه :

ـ ما انتى مراتى يا عبله .. انتى مراتى !

***

قبل أن تضغط جرس البـاب جاءها صراخهما من الداخل :

ـ ياشيخه ربنا ياخدك ويريحنى منك !

ـ وما ياخدكش انت ليه يا كامل ؟

ـ ياوليه اهدى .. اتقى الله فى عيشتك ؟

ـ وهيه دى عيشه يابو التسعين ملطوش !

ـ يا ام عبله اعقلى وخلى الليلة تعدى على خير !

ـ ومن امتى شفت الخير معاك يا كامل ؟ !

ـ أهو انا كده .. اذا كان عاجبك !

ـ لا مش عاجبنى !

ـ اهو عندك الباب يفوت جمل !

وجاءتها ضـــحكة أمهـــا مجلجلة ، رنانة ، خالية ، مستفزة ..

ـ طب شد حيلك لو كنت راجل !

ـ كده يا ام عبله .. كده .. طب روحى وانتى..

وضغطت عبله على جرس البـاب بكل ما تملك من قوة .. انقطع يمين الطـلاق فلم يتم وفتح أبوها لهـا الباب فأطلت عليهما بتحية المساء . كانت سعيدة . وكانت تعلم ان هـذا « الموال » موسيقى مزعجة تعزف فى البيت ليـل نهار .. تحبهما نعم ، وكيف لا يحب الانسان أباه وأمه ، مختلفان نعم ، ومنذ أن وعت وكل منهما فى واد غير وادى الآخر .. حسم وجودها الامر وكان المشهد كما توقعت ، أمها تجلس وفى يدها أوراق اللعب وهى « تفتح الـكوتشينة » لتستشف المستقبل وهو بجلبابه وطاقيته وسجادة الصلاة يفردها هربا من المعركة .. مكبرا للصلاة متمتما بآيات من القرآن ..

ما الذى أصابها فى تلك الليلة ؟ ! .. لا تدرى

غير انها ارادت أن تقول .. أرادت أن تحدث أحدا ، أن تخبر أمها بالذات بما وقع . ليس . ليس ، ليس عدم ثقة فى رمزى ولـكن رغبة فى المشاركة بالفرحة . نعم .. كانت فرحة . كانت كعروس ليلة زفافهـا تريد أن تشهد العالم كله ان رجلها أصـبح لها وانها أصبحت له . اقتربت من أمها وقبلتها فلم تنطق الام .. همست :

ـ ماما ..

زامت الام وقد استغرقتها الاوراق والارقام والصور

ـ ماما ..

التفتت فجأة وصرخت :

ـ عاوزه أيه من زفته .. ابعدى عنى وكفايه عمايل أبوكى فيه !

ولقد كان شيئا عاديا هـــذا الذى حـدث ، شىء تعودته ، وكانت تحكى لرمزى عنه ، وأحـيانا كانت تضحك منه .. غير انها الليلة .. الليـلة .. الليـلة

بالذات ، شعرت وكأن أمها تصفعها ليلة الفرح !
ــ ماما .. أنا عاوزه اتــكلم معاكى !
ــ سيبينى فى حالى .. عندك ابوكي روحى له !
ونهضت مبتعدة ؛ جرح هو أم قبح كان مخزونا فى القلب .. أنهى أبوها صلاته مبسملا ومحوقلا فانزلقت لتركع بجواره على الارض هامسة :
ــ بابا ..
ــ سيبينى فى اللى انا فيه يا عبله .. كفايانى عمايل أمك وقرفها !
وعلى الفور جاءته من حيث كانت أمها قذيفة ، رد عليها بأخرى .. واشتعل البيت بالنار وهى واقفــة ترقب ... نادت على الام فلم ترد ، نادت على الاب فلم يرد ، صرخت فيهما فازداد صراخهما . ماما . بابا . ماما . بابا . ولــكن ، كانت الحرب بينهما تدمر فيها كل شيء ، كل شيء ..
فى اليوم التالى أدارت قرص التليفون :
ــ رمزى بك من فضلك !
ــ رمزى بك مسافر يا مدموازيل !
نزل الخبر على راسها كالمطرقة ، عنيفا ، رهيبــا ، مدمرا ، وجاءها الصوت من الطرف الآخر :
ــ الو .. الو .. الو ..
ــ سافر ؟ ! .. سافر امتى ؟ ! ..
ــ سافر أوربا !
وعندما وضعت السماعة فى مكانها ، لم تكن الدنيــا تدور ، أبدا .. ولم تصعد الدموع الى عينيها ، أبدا. فقط . طوفان رهيب من الــكراهية راح يتــدفق من أعماقها . كيف . كيف . كيف .
ولا جواب ..

وهكذا جاءتها الـكراهية بما لم تحلم به أبدا .

وهكذا فى لحظة واحدة انتقلت من عالم الى عالم .. ومن دنيــا الى دنيــا ..

وهكذا ازداد تفوقها وازداد نبوغها وازداد اعجاب الناس بها ، كما ازداد عدد الذين أحبوها ! !

فى فناء الجامعة جذبتها سلوى من يدها مبتعدة عن الشلة الضاحكة :

ـ عبله .. انتى اتجننتى ؟ !

ـ ليه بس يا سلوى ؟ !

ـ ايه اللى انتى بتعمليه ده ؟ !

ولم تكن عبله ترى فيما كانت تفعله جريمة ثلاثة من زملائها وقعوا فى غرامها فما ذنبها .. ومنذ عام وبعض عام كان رمزى قد اختفى ، لم تتصــل بهولم تفكر ولم تحاول غير انه لم يتصل بها .. خلعت الدبلة ولم تجد من تسر اليه بما حدث سوى سلوى .. ارتاعت سلوى وبكت وقضت أياما حزينة .. غير ان عبله لم تحزن أبدا ، ولم تبك أبدا ، بل انطلقت لتدمر كل شيء ، كل شيء . ولم يكن ما يحدث بين «العيال» فى الـكلية يعنى عبله أو يشغلها .. كان ما يعنيها وما يشغلها حقا هو « البروفيسور بيير » ..

كان أستاذا للغة الفرنسية لـكنهكان يتقن العربية.. كان شــابا وكان وسيما ، لـكنه كان عالما بكل ماتحمل الـكلمة من معنى .. كان صديقا للجميع غير انه كان صديقا لعبله بنوع خاص .. ذات يوم قال لها :

ـ انتى زى الصاروخ يا عبــله .. بس عيبك انك مش موجهه !

فى علاقته بها كان نوع من الحذر لم تعرف سببه .. ردت على صياح سلوى وغضبها قائلة :

ـ ايه اللى مخوفك من بيير ، ده عمره ما غازلنى ، وعمره ما قال لى كلمة خارجـه ، وعمره ما اتصرف معايا تصرف غير لائق . وعمره ما ...

ـ البروفيسور بيير بيحبك يا عبله !

ـ لا ! ..

قالتها بحزم شـديد ، قالتها بثقة شـديدة ، ليس حبـا هـذا الذى يكنه لها بيير ، أبدا ليس حبا ، انه شىء آخر ، شىء غامض لا تدريه . قالت لسلوى هـذا كما قالته لنفسـها ، لم تعد تفكر منـذ ذلك اليوم ان تتحدث الى أمها أو أبيها ... ولم تعد تفـكر منـذ أن اخبرت سلوى بما فعله رمزى أن تطلعها على شىء ، فما الذى كان هناك ، فى أعماقها ؟ !

ـ بروفسور بيير .. أنا عاوزه اسألك سؤال .. لـكن ؟ !

ـ أنا هنا علشان اجاوب على أسئلتك يا عبله !

ـ انت بتحبنى ؟ !

ـ لا

بثقة قالها .. بهدوء نطق بها .. فتركته ومضت وهى واثقة من انه كان صادقا .. شىء غريب هذا الذى كان يربطها به ، شىء غريب ومخيف ومروع ، غير انه كان مثل القدر ، يسعى اليها حثيثا ، دون أن تستطيع دفعه .

ـ الفلوس مش كل حاجه يا عبله .. انتى مجنونة!

ـ لو كان بابا غنى ما كانش رمزى عمل كده !

ـ رمزى عمل اللى عمله لانه نذل !

ـ رمزى عمل اللى عمله يا سلوى لانى فقيرة .. لأن معنديش فلوس ..

ـ انتى مصدقة نفسك !

ـ أنا مقتنعه باللي أنا باقوله ! ..

ويوم ظهرت نتيجة الليسانس كانت ناجحة ، وكان هذا اليوم هو موعد زواج سلوى من عزت !

ـ تفتكرى لو ان باباكى مكانش له المركز ده ، وما كنشى عنده الفلوس دى ، كان عزت خطبك ؟ !

ـ عبله .. انتى اتجننتى .. عزت بيحبنى ، وانا باحبه !

ـ تفتكرى لو ما كانشى باباكى غنى وفى المركز ده ، كان عزت وقع فى غرامك !

ـ عبله .. اخص عليكى !

ـ ما تزعليش منى يا سلوى .. انتى عارفه .. أنا صريحة ، وهى دى الحقيقة !

وقبل هـذا اليوم بأسـابيع طويلة ، كانت تحيا أزمة الفستان ..

ـ ماما .. أنا لازم أحضر فرح سـلوى ، وأنا ماعنديش فستان !

ـ وأنا أجيب لك منين .. عندك أبوكى !

وذهبت الى أبيها :

ـ بابا .. ..

لـكنها لم تـكمل .. فلقد انفجر فيها هادرا شاكيا أمها فمضت .. ويومها لمح البروفسور بيير فى عينيها ذلك الحزن الذى ينبىء عن عجز .. قال :

ـ مالك يا عبله ؟ !

ـ زعلانه !

ـ ليه ؟ !

ـ علشان فستان ! !

كان بيير ، رغم كل شىء ، قد أصبح صديقا لها .. كانت تجلس اليه بالساعات لتناقشه ويناقشها ، لتحكى

.. كان بيير بارعا فى جر قدمها لأن تقول كل شىء ..
ذات يوم سألته :
ـ بروفسور بيير .. انت بقيت عارف عنى كل حاجه!
وابتسم بيير ولم يرد .. غير انه فى ذلك اليوم الذى حدثته فيه عن الفستان قال :
ـ انا حاجيب لك فستان هدية ! ..
ـ مش حا اقبلها ؟ !
قالتها فى تحدى الواثق من نفسه !
ـ من عند بيير كاردان فى باريس !
برضه مش حا اقبلها ..
لكنه .. قبل الزفاف بيومين ، همس فى أذنها قائلا :
ـ عبله .. الفستان وصل !
وكانت هذه هى المرة الاولى التى تهزم فيها عبله كامل .. كانت هذه هى المرة الاولى !

***

عندما خطت عبله الى بيت البروفسور بيير ، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بالليل .. تركت سلوى الجامعة وضحكات الناجحين وتهانى العيال للعيال واصطحبته لترى الفستان .. فى التاكسى قالت :
ـ انا حاعتبره سلف ودين لحد ما اشتغل !
فابتسم بيير ولم يرد ..
لكنها عندما فتحت الصندوق ورأت الفستان ، وعندما شهقت للشىء المبهر الذى انفرد بين يديها .. كان لابتسامة بيير طعم آخر.. غريب ، مثير، غامض.. وقبل أن تخرج من شفتيها كلمة شكر،كان يقدم لها طاقما كاملا للماكياج .. حاولت أن تنطق فلم تستطع ،

حاولت أن تشكره فأبت الـــــكلمات ، التفتت اليه وسألت :

ــ بروفسور بيير .. انت بتحبنى ؟ !

ولم يرد هذه المرة ، كل ما فعله انه ضحك ضحكة خفيفة .. ثم غادر الغرفة لترتدى الفستان ! !

***

كان حفل الزفاف مقصورا على الأصدقاء والصديقات والاقارب .. وعندما دق جرس الفيللا الأنيقـة وفتح الباب ، التوت كل الرءوس نحو الضيف القــادم .. وكانت عبلة كامل تعلم علم اليقين ما الذى أصـــــاب الجميع .. الجميع بلا استثناء .. كانت فى هذا اليوم جميلة .. لا .. لم تكن جميلة .. كانت شيئا خارقا للعادة .. وعندما وقفت أمام المرآة قبل أن تغادر بيت البروفسور بيير كان هذا يقف وراءها ، وكان يقول :

ــ أنا خايف على العروسة منك !

لكنها ــ أبدا ــ لم تكن تفكر فى هذا .. كانت تنظر الى نفسها فى انبهار ... ها هو يقينها يتحقق ، ها هى تبدو مثل آلهة من آلهات الاغريق فى فستان باهر ، ولولا المال ، لما وصلت الى هذا ، ولما أصبحت هكذا ، ولما التوت كل الاعناق فى فيللا محمد بك اسماعيل والد سلوى ورئيس مجلس ادارة احدى الشركات الـكبرى ، لتشاهد هذه الفتاة التى كانت ترفل فى ثوب لم تره عين .

وعندما ضمتها سلوى الى صـــــدرها ، كانت عيناها جاحظتين وهى تشاهد الفستان هامسة :

ــ جبتى الفستان ده منين يابت ؟!

وهمست عبلة :

ــ دى هدية البروفسور بيير منها فى جوازك !

لحظتها .. لحظتها بالذات .. تقـــدم منها صبرى ضاحكا :

ـ سلوى .. مش تقدمينى .. أنا صبرى .. صبرى عبد المنعم .. ابن خالة سلوى !

ولم تكن عبلة كامل ، تعرف فى ذلك الوقت ، ان القدر قد ربطها بصبرى الى الابد ..

ولم تكن تعلم .. ان الخيوط كانت ـ الآن ـ تنسج غير بعيد عنها ، وفى قلب القاهرة ..

كان من عادة البروفسور بيير ـ اذا ما شرع فى العمل ليلا ـ أن يغلق الابواب والنوافذ وأن يســـدل الستار تماما ..

وعنـــــدما دلف الى غرفة مكتبه ، وأغلق الباب ، وضغط على هذا الزر الخفى فى مكتبة الحــــائط .. وعندما تحرك ذلك الجزء الصغير فى قلب المكتبة ليكشف عن معداته من الحبر السرى وأدوات التصوير وجهاز الارسال ، كان لا يزال يفكر فيما قالته عبلة كامل ..

امتدت يده فأخرجت الحبر السرى وأدوات الكتابة .. وشرع فى الاعداد لكتابة الخطاب ، فتح كتاب الشفرة وراح ينتقى الكلمات .. لكنه توقف ـ على غير عادته ـ وسرح بخياله ..

واذا كان من الصعب على من كان مثله أن ينفعل فى مناقشة مع انسان وضع عينه عليه ، فانه فى تلك الليلة لم يستطع ... كان اعجابه بعبلة يزداد يوما بعد يوم ، ثمة شىء فى أعماقها يدفعها الى الكراهية والاحتقار ، شىء لم يكن يدريه وان كان يعلم يقينا أنه موجود .. وكان اذا ما انفعل تحدث بالفرنسية حتى تسعفه لغته ، ولقـــــد ضحكت عبلة ، وخاضت معه فى المناقشة ،

بالفرنسية التى كانت تجيـــدها ، لترسم له الطريق واضحا .

ـ ماذا تريد أن تقول يابروفسور ؟ !

ـ أريد أن أقول ياصديقتى انك تظنين أشياء لا ظل لها من الحقيقة !

ـ فما الذى تريد أن تعرفه ؟!

ـ ما الذى تريدينه أنت ؟!

ـ اننى أبحث عن القوة !

ـ ان القوة لن تجديها الا فى العلم ، ففى العلم تكمن القوة الحقيقية !!

ـ وفى المال يا صديقى تكمن القوة الفعلية !

ـ ان الحصول على المال سهل يســــير ، فلم اذن تجهدين نفسك فى العلم ؟ !

ـ لانى أريد أن أحصل على أكبر قدر من المال ، ولن يتأتى هذا الا بالعلم !

ـ الى هذا الحد ..

لكنها قاطعته فى صراحة :

ـ الى هذا الحد .. والى كل حد .. لقد هزمت مرة ، ولن أسمح بالهزيمة مرة أخرى !

ـ أتظنين ان سلوى أسعد منك حالا ؟!

ـ يكفيها أنهـــا ستتزوج الليلة دبلوماسيا ، وانها ستسافر الى جنيف بعد غد فى الصباح الباكر ، وانها ستشاهد أوربا . وستتاح لها الفرصة لان تعرف وترى وتتعلم !

ـ هل ترغبين فى السفر !

قالت بالعربية وهى تضحك :

ـ ايدى على كتفك !

ولم يجد بيير ما يكتبه بالشفرة ـ سوى هذا الحوار

.. ضبط الأوراق ، وجهز نفسه ،واضاء أباجورة المكتب وشرع فى العمل بهدوء وداب !

لكنه قبل أن يخط كلمة واحدة نظر فى الساعة .. وكانت أمامه فسحة كافية من الوقت .

***

ضحكت سلوى وهى تهمس فى أذن عبلة :

ــ صبرى حايتجنن عليكى !

ــ وأنا مالى !

كانت عبلة ــ الليلة ــ قد وصلت الى ذروة الاحساس بالثقة .. وها هو كل شىء الآن بين يديها ، تدعمت ثقتها بنفسها ساعة أن ظهـــــرت النتيجة ، انها الآن تستطيع أن تقول انها جاهزة لكبح جماح العلم .. كما انها الليـــلة تستطيع أن تقول أنها قادرة على هزيمة رمزى !!

ــ رمزى ؟!

ما الذى ذكرها به ؟!

ــ يابت يا عبيطـة ، صبرى ده مدير عام ، وعمره ٣٢ سنة ، ومهندس ، وعبقرى ، وشغله مهم جدا !

ــ وأنا مالى !

ــ يا عبيطة ... دى البنات حاتموت عليه !

ــ من عبطهم !

ــ وهو حايموت عليكى !

ــ من عبطه !

ــ ده وارث !

ــ يبل فلوسه ويشرب ميتها !

ــ عينه مابتنزلش منك !

ــ يجيب لها سم وينزلها !

ــ كلمنى عنك من شوية ..

وابتسمت عبلة .. كانت تعرف الآن انها قادرة .. كل الاشياء القديمة الآن اصبحت صغيرة .. كل الآلام أصبحت وكأنها لم تكن ... حتى عندما سأل أبوها عنها بالتليفون ، ردت عليه فى لامبـــالاة .. كان قلقا لظهور النتيجة ، فسخرت من قلقه وهى تزف اليه نبأ النجاح .. سألها لم لم تعد الى البيت طوال اليوم ، فتدفق من أعماقها حنين غامض اليه ... وقتها ، أحست فقط انها تحبه .. تحبه لأنه مسكين !



أمام فندق شبرد القائم على شاطىء النيل بالقاهرة ، توقفت سيارة تاكسى ، وهبط منها البروفسور بيير .. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة بدقيقتين ، دلف الى داخل الفندق ، فاحتواه هواء الهول الدافىء ... انثنى الى اليمين وسار خطوات حتى وصل الى الهول، تطلع الى الجالسين والجالسات وكان المكان شبه خال .. بنظرة سريعة خبيرة احتوى المكان كله قاطمـــأن واســـتدار عائدا من حيث أتى .. كانت وجهته تلك المكتبة الصغيرة القائمة على يسار المدخل .. تطلع الى بعض الكتب حتى رآه قادما ، لشهور طويلة وهو يلتقى به لكنه ــ أبدا ــ لم ير وجهه كما ينبغى .. استدار ووقف أمام الحامل الدائرى الذى يحمل مجمـــوعة « الكارت بوستال » ، اقترب من الحامل وراح يتطلع الى الصور فى امعان ... امتدت يده الى جيب معطفه الداخلى وأخرج الخطاب وفى لمح البصر كان قد دسه بين الكروت .. وكان «هو» يقف فى الناحية الأخرى ، فدفع بيير بالحامل فدار ، ودار الخطاب ليقف عند الناحية الأخرى . وامتدت يد لتأخذ الخطاب وتدسه فى الجيب الداخلى للمعطف الرمادى .. ومضى الرجـل .. وظل

بيير للحظات حتى انتقى كارتا ، دفع ثمنه ، وخط عليه بضعة أسطر ، وكتب العنوان وابتاع من عاملة المكتبة طابع بريد ، ثم ترك لها الكارت ، كما تعود أن يفعل .

بعد اربعة أيام بالضبط ، كان هناك اجتماع صغير عقد فى « الموساد » المخابرات العامة الاسرائيلية وكان « ايزاك » ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى يحمل هذا الاسم بجانب اسمه الحقيقى ، يستمع الى كل المعلومات التى وصلت اليهم من فتاة تدعى « عبلة كامل » .. وكان المطلوب شيئا هينا بسيطا ، زيارة السوربون مدتها أسبوعان ، وتذكرة طائرة تمر بجنيف .

فغرت عبله فاها دهشة ، ابتسمت ، كادت تصفق مرحا ...

ـ بروفسور بيير .. انت بتتكلم جد ؟!

ـ تقدرى تلقى التذاكر والمواعيد فى مكتب الملحق الثقافى !

فى ذلك اليوم بلغ انفعال عبلة أقصاه .. فمالت على وجنته وقبلته .. كانت الجامعة خالية من الطلبة والأساتذة .. لكنها غادرت مكتبه مهرولة،وما أن غادرت سور الجامعة العتيد ، وراحت تبحث بعينها عن تاكسي وهي تحسب ما فى حقيبتها من مال .. حتى وجدت صبرى أمامها ..

دون تفكير .. فتحت باب السيارة ، وصاحت فى مرح :

ـ صبرى .. اطلع بى على الزمالك .. قوام ، ماقداميش غير ساعة الا ربع !

وكان المهندس صبرى عبد المنعم ، فى غاية السعادة ، وهو يقود سيارته عبر شوارع القاهرة فى طريقه الى الزمالك ، وكانت عبلة بجواره !

يحبها ؟ !

نعم يحبها !

سؤال وجواب ولا شيء آخر سوى قدر غامض يجذب اليها القلب والنفس والوجدان جميعا . كان عاتيا فلم يخفق قلبه لفتاة أبدا .. الحب كلمة طالما سخر منهـا لكنه الآن غارق فيها لشوشته ، اسمها عبلة كامل وهاهى تركب بجواره وليس فيها من الجمال الصارغ شيء غير أن فى عينيها نظرة آمرة ، عندما طاردها لم تمانع وعندما حاول اقتحامها صدته قوى لا تعرف اللين أو الهزيمة .. فى البداية كان الأمر عنـــــادا ثم تحول الى شيء آخر لا يدريه فى نفسه ، ضحك منه محمود صديقه وقال أن هزيمته أمام الجنس الآخر تحققت أخيرا ، فهل يرضخ .. هل يعرض عليها الزواج ؟!

التفت اليها وهو يقود السيارة عبر شـارع هادىء ظليل من شوارع الزمالك :

ـ عبلة ... تتجوزينى ؟!

ـ ليه ؟!

قالتها ببساطة من سمع من انسان تحية الصباح ، ارتجف من رأسه حتى أخمص قدميه ووقفت السيارة أمام السفارة فغادرتها عبله تقفز كالعصفور :

ـ حاتستنانى ؟!

ـ أكيد !

مضت واختفت وأشعل ســـيجارة واستغرق فى التفكير ..

رفضته .. لا . لم ترفضه . بل رفضته . بل هى لم ترفضه .. كالبندول كان يرتجف هنا وهناك ، لا يدرى كم غابت من الوقت لكنها عادت وكانت فى قمة السعادة .

قبل السفر بيوم كانا يجلسان معا فى أحد الكازينوهات

المتناثرة على شاطىء النيل ، كان الغروب يلون الدنيا بشفق رقيق ، وكان هو يحكي عن نفسه ، وكانت هى لا تحكى شـــــيئا .. حتى اذا حان موعد الانصراف همس :

ـ عبلة ... انا باحبك !

ـ تبقى عبيط !

ـ ياعبله أنا باحبك فعلا ... باحبك وعاوز اتجوزك ومش قادر أعيش من غيرك !

وجاءته الاجابة ضحكة ساخرة رقيقة :

ـ لا .. حاتقدر تعيش من غيرى !

وفى اليوم التالى كان على موعد معها لكى يوصلها الى المطار .. وفى الصباح اعتذر بالتليفون عن عمله ..وظل يعد الدقائق حتى حان الموعد . وعنـــــدما دق جرس التليفون فى الطرف الآخر رفعت السماعة وجاءه صوت أمها :

ـ مين اللى عاوزها !

ـ انا .. صبرى عبد المنعم .. ابن خالة سلوى !

ـ دى سافرت من ساعتين ياباشمهندس !

ـ سافرت ؟!

صرخها ولم يقلها .. صرخهـــــا بلوعة من أصيبت كرامته فى صميم الصميم ... فى ذلك اليوم ، أحس وكأن أحدا القى به من فوق قمة جبل ، فظل جسده يتدحرج، حتى وصل الى هاوية بلا قرار !

***

ابتسم ايزاك وهـــو يرقب وجه البروفسور أرموند أستاذ اللغة الفرنسية بالسوربون .. كان أرموند كلما انفعل تقلصت عضلات وجهـــه وتراقصت نظارته أمام عينيه فبدا منظره مضحكا .. كان ايزاك ـ الآن ـ يعرف

طريقه جيدا ، فراح يداعب البروفسور أرموند وهو يلف ويدور حول الموضوع :

ـ مسيو ايزاك .. هل لك أن تخبرني بما أتيت من أجله اليوم ؟!

ـ يحن عادة يا بروفسور لا نأتي الا للخير !

قال أرموند وقد ازداد تلاعب نظارته فوق أنفه :

« استمع الى يا سيدى .. فى بادىء الامر ، عندما جئتم الى لكى تهددونى بالتعامل مع النازى ... كنت أرتجف هلعا ، لا لخوفى مما يمكن أن تفعلوه بى ، ولا لخوفى من تلامذتى اذا دقت من حول اسمى طبول معاداة الســـــامية .. ولكن لانى بالفعل لم أتعاون مع النازى ، لقد كنت أيامها شابا ممتلئا حماسا .. وكنت هنا فى السوربون غارقا لأذنى فى مصطلحات اللغة وآدابها .. واذا بكم تهددون وتتوعدون . لا . لا .. لا تقاطعنى بالله عليك فما عدت أحتمل ... ولقد رضخت لطلباتكم واغلب الظن انى سوف أرضخ الى ما لا نهاية .. غير أن مايضنينى حقا هو ذلك الأسلوب الذى تتبعونه معى .. لماذا اللف والدوران ؟! . لم لا تقول ماعندك وتريحنى من العذاب ؟!

ـ عبلة كامل !!

نطق ايزاك الاسم فساد الصمت وسيطر على الغرفة العنيفة فى المبنى العتيق .. ترددت أنفاس البروفسور ارموند بصوت مسموع وبدا انه لا يسمع بهذا الاسم من قبل ..

ـ من هى عبلة كامل ؟!

ـ فتـــاة مصرية حصلت على زيارة السوربون لمدة اسبوعين !

ـ وماذا تريد لها ؟!

ـ أن تمنح بعثة دراسية لمدة أربع سنوات !
هز البروفسور أرموند رأسه موافقا .. بدا وكأنه قد فقـــد الحيلة تماما ولم يعد قادرا على المقاومة ... هؤلاء الاسرائيليون الذين يعيشون فى الارض تحـــكما وجبروتا . الذين يملكون من القــــول ما لا يستطيع مقاومته ليس غريبا ان يطلبوا شيئا لفتاة مصرية لـكن الغريب هو تلك الابتســـامة المطمئنة التى ترتسم على شفتي أيزاك .. مضى الاسرائيلى مختفيا وتركه وحده ، أحس بالحاجة الى هـــواء منعش فجمع أوراقه وغادر غرفته وكان فى طريقه الى السينما .. هنـــاك ، على شاطىء النهر ، يستطيع أن يجلس ، وأن يفكر ، وأن يبث مافى صدره الى مياهه الجارية !

***

هبطت عبلة مطـــار جنيف وقلبها يرقص طربا .. ها هى أوربا أخيرا . تلك القمـــــة التى طالما أودت مخيلتها من خلال الكتب والسطور وكما كان الحلم كان الواقع ، كل شيء كان يجرى فى مجراه دون عقبات . ارتمت بين ذراعي سلوى ودمعت عيناها، صافحت عزت بمرارة لم تعهدها فى نفسها من قبل ، كانا فى انتظارها وكانت تعلم أنهما سيكونان هناك دائما ..

ـ سلوى .. لو قلت لك أنك وحشيني تصدقيني ؟!

ـ ولو قلت لك انى عيانه بيكى تصدقيني .

وضحك عزت وهو يقود السيارة التى تحمل أرقاما دبلوماسية ، الشوارع والبيوت والنظافة والنظام وكان الدنيا تحولت الى جنة ثرثر عزت وكأنه يبدو سعيد وهو عبله غيرته منها ، فلا حديث لسلوى الا عن عبله ، ولا خناقة الا حول عبلة .. حتى صاحت سلوى :

ـ لكن قولى لى يابت انتى .. ازاى جيتى الزيارة دى للسوربون !

ـ البروفسور بيير !
ـ أنا قلت كده برضه !
وعندما اختلت كل منهما بالاخرى بعد الغداء أمطرتها سلوى بالأسئلة .. صبرى ، ماذا فعل معها وماذا فعلت معه .. انزعجت سلوى فابن خالتها لا يستحق من عبلة ما تفعله به ..
ـ أنا قلت له يا سلوى .. من الأول قلت له !
ـ طب وليه ماتتجوزوش ؟!
وأطلت من عيني عبلة نظرة سالت كالدموع وامتدت يد سلوى لتربت على يد عبلة :
ـ عبلة .. صبرى مثقف وفاهم وممكن يفهم حاجات كتير !
قالت عبلة وقد تحجرت النظرة فى عينيها :
ـ أنا مش عاوزه حد يفهم حاجه ، ومش عاوزه حد يمن على بحاجة !
ورغم هذا كان كل شيء يبدو كالحلم ، الدنيا والجبال والثلوج والشوارع والنظافة والناس .. هنا يجب أن يعيش الانسان ، هنا يصبح الشرف شرفا الكلمة كلمة والحب حبا ، هنا .. هنـــا . هنا رأت قدرى وكأن الارض انشقت لتخرجه كالمارد من قمقم كان حبيسا به .
دق قلبها . دق ودق ودق . كانوا فى ملهى ليلى ، وكانت سلوى تراقص عزت عندما وقعت عيناها عليه ، قدرى ، قدرى بلحمه ودمه .. يا للسنين عندما تطوى حياة الانسان بلا رحمة ، يا للحب عندما يتحول الى غدر من نوع قاتل ، يا للأيام تبقى فى الوجـــدان بعذابات بلا حدود .. وعندما التقت عيناها بعينيه ، وعندما أطلت من عينيه تلك النظرة المرحة كادت تتهاوى .. وعندما وقف أمامها تثلجت أطرافها حتى التجمد . انحنى عليها

بابتسامته التى طالما سحرتها :

ـ عبلة .. والا انا باحلم !

قالت وهى تمد له يدا كالجثة :

ـ ازيك يا قدرى !

***

غير ان القوة ليست غريزة يولد بها الانسان ، واذا ما أراد الواحد منا ان يكون قويا فعليه أن يضع أمام عينيه هدفا لا يحيد عنه . ثم ، يصبح عليه أن يسحق ذاته ـ اذا ما اقتضى الامر ـ لكى يحقق هذا الهدف ومنذ أن فعل قدرى مافعل كان هدفها هو القوة .. كانت تنظر الى الناس فى الشارع فترى فى عيونهم نظرات الشماتة والكراهية لكنهم لا يعرفون أنها أذلت ، فيه كانت ترى كل الرجال، وأصبح الهدف ـ بالقوة وحدها ـ الانتصار على الرجـــل ، واذا كانت الطبيعة قد جعلت من المرأة مخلوقا أضعف ، فلم خلقهـــا الله امرأة ؟! .. مضت الليلة واذا بالمارد يهدد فى داخلها ساخرا بالماضى بالحب بكل الذى كان... ثلاثة أيام فى جنيف كان قدرى يطاردها فيها ليل نهار .. ذات مرة كانت تجلس بجـــواره فى السيارة عندما صرخ :

ـ طب انتى عاوزه ايه ؟ !

ـ مش عاوزه حاجة !

ـ أنا اعتذرت لك عن اللى كان .. أنا عاوز أصلح غلطتى !

ـ مين قال لك انك غلطت يا قدرى ؟!

ـ عبلة .. اسمعى لما أقول لك ..

قاطعته بصوت هادىء واثق :

ـ اسمع انت يا قدرى ، اللى انت عملته ماعملتوش غصب عنى ، أنا مش قاصر ، واللى حصل حصـــل

برضاى .. أنت ليه بتعذب نفسك !

ـ أنا عاوز اتجوزك !

ـ وأنا باعتذر !

ـ انتى خطيبتى !

ـ دبلتك أهيه !

لحظتها فقط ، تذكرت انها خلعت الدبلة حقا لكنها كانت تحتفظ بها أينما ذهبت ، أينما كانت ، حتى فى نومها كانت تحتفظ بالدبلة .. لا تدرى كيف كان يحدث هذا لكنها الآن وعته وكأنها ما كانت تفعله الا حلما ووهما ... مدت له يدها بالدبلة فلم يمد يده ليأخذها . وفى بساطة وضعتها فى جيبه وكانت تشعر أنها تسقط فى هذا الجيب .. قلبها ذاته !

سحقا للماضى كله ، سحقا لكل شىء فما بعد القلب شىء ، سحقا للدنيا للرجال للناس للمجتمع فماذا تركوا لها سوى العذاب دفينا حتى النخاع .. ها هى القوة تحقق انتصاراتها بانهيار قدرى ... أين هذا الذى يتوسل من هذا الذى تركها بلا كلمة اعتذار . وفى مصر الآن يربض صبرى كالكلب فى انتظار أن يلعق يدها باشارة ، أو بنظرة ولسوف تحطم كل شىء كما حطموها، الأب والأم والحبيب والناس جميعا .. ليسقط الضياع والضعف ، ولتصعد سلمها الى الطائرة المقلعة بها الى باريس ، ولتتمتع بدموع سلوى ونظرات قدرى الحزينة، لتصعد الآن الى حيث السحاب وما فوق السحاب ، زارة هى السوربون لكنها لن تخرج منها صفر اليدين .. واذا ما عادت الى مصر فلسوف تعود منتصرة .. غادرتها مهزومة بما لا ذنب لها فيه ، مسحوقة بقوى لا قبل لها بها . لكنها الآن ، وبعد أن هزمت قدرى ووقفت تنظر اليه من أعلى .. تعلم علم اليقين ، ان هذه

هى البداية ، فقط ، هى البداية ..
ولكن ... الى اين ؟ !
هذا ما لم تكن تدريه . بل هذا ، ما لم تفكر فيه !

***

نظر اليها البروفسور أرموند من خلف زجاج نظارته .. وبدت عيناه شديدتى الزرقة ..
ـ بروفسور .. هل ترى فى شيئا غريبا ؟!
زام ارموند ولم يجب عن السؤال لكنه راح يحملق فيها مرة أخرى ..
لساعتين كاملتين كانا يتناقشان ، فى الآدب فى جان جاك روسو ، فى موليير ، فى فولتير ، فى فيكتور هيجو ، فى الثورة الفرنسية .. فى .. فى . فى كل شىء وكانت ممتازة ، فلم جاء ايزاك لـكى يرشحها ؟ !
سؤال لم يجد أرسوند له جوابا...ساد بينهما الصمت لدقائق ظلت فيها مبتسمة .. أخيرا وجد مايقـــول فقال :
ـ مدموازيل كامل .. هل لك أن تخبرينى بهدفك من هذه الزيارة ؟!
جاءه الرد كالصاروخ فى قوته وبساطته .
ـ لا أعتقد ان أحدا يأتى الى السوربون الا للمعرفة والعلم !
زام لوضوحها وتململ :
ـ اذن فأنت تريدين بعثة لاربع سنوات !
ـ أنا لم أحلم بشىء كهذا !
كان ردها مثل لطمة جعلته يقفز واقفا :
ـ ماذا تقولين ؟!
ـ أنا لم أحلم بشىء كهذا وان كنت أتمناه !
اقترب منها محملقا فيها بعينيه الزرقاوين .

ـ على هذا المقعد الذى تجلسين عليه الآن ايتهـــا الآنسة ، جلس مئات من الطلبة من كل أنحاء العالم ، وعلى مدى ثلاثين عاما كنت أستقبل هؤلاء الذين يبحثون ويريدون المعرفة ، ولقد التقيت فيهم بأنماط ونماذج عديدة .. غير ان المحير فى الموضوع كله ، انك ممتازة !

ـ هذه شهادة اعتز بها حقيقة !

ـ ليست شـــــهادة لكنه تقرير واقع ، أن نطقك للفرنسية يكاد يقترب من الكمال !

ـ أعرف هذا يا سيدى !

وتوقف .. وبقـــدر ماهزه غرورها بقدر ما أشاع السرور فى نفسه ، بدت له كطفلة شقية ، لم تكن جميلة ذات الجمال الآسر أوالساحر لكنها كانت جذابة ، نعم، فى عينيها تحد غريب ..

ـ مدموازيل كامل .. ماذا تريدين ؟!

ـ القوة !

ـ ان فى العلم تكمن القوة الحقيقية !

ـ ولـكن فى المـال تكمن القوة الفعلية !

أثاره ردها لأنه كان حقيقيا أم لأنه كان سافلا بالقدر الذى يهزه من الاعماق .. انثنى بعيدا عن الموضوع هاربا من المناقشة وراح يهدر متحركا فى الغرفة بانفعال غامض :

ـ واذا ما قال لك العالم كله أن نطقك للغة الفرنسية يقرب من الكمال فهذا لا يعنى شيئا .. أما اذا قلت أنا هذا فهذا هو الذى يجب أن يعنى بالنسبة اليك شيئا !

ـ لقد رددت ما سمعته من الآخرين !

ـ انها مملكتى هذه اللغة التى امتصت شبابى وحياتى!

ـ وأنا يابروفسور ملكة فىمملكة ذات وقدكشفت لك عنها القناع !

ـ أتريدين أن تقولى انك لم تفكرى فى البعثة أبدا ؟!

ـ لم احلم بها وان كانت تبدو لى الآن وكأنها أمنية الامانى جميعا !

ـ مدموازيل كامل .. من أنت ؟!

ـ أنا .. عبلة كامل !

***

فليأت الجميع اذن ليصفقوا فليس بعد هذا انتصار .. ولو أنهـــا رات ماحدث اليوم فى السوربون فى الحلم لاستيقظت وظلت تضحك من الأعماق .. لم تكد تتفوه بالاجابة حتى وقع الأستاذ صريع القســوة ، ولقد قال نابليون ذات يوم : لا توجد كلمة مستحيل الا فى قاموس الضعفاء ... وها هى القسوة تؤتى ثمارها ... يجرى نهر السين تحت قدميها كالحلم الذى طال انتظــاره ، وهى تعرف رقم الاتوبيس الذى ستركبه لكنها لا تعرف أين تنزل منه .. أعطاها البروفسور بيير فى القاهرة عنوان بنسيون رحبت بها صاحبته واختفت .. و ها هى تصعد الاتوبيس تكاد تصرخ من السعادة والفرح ، ولسوف تبقى فى القاهرة اسابيع تعود بعدها الى مدينة النور ، تميل على جارها لتسأله عن المحطــة بالفرنسية فاذا الرد يأتيهــا بالعربية :

ـ لسه فاضل محطتين !

تطلعت اليه فاذا الوجه أوربى تحوطه لفحة الشرق الدافئة :

ـ ايزاك .. اسمى ايزاك !

ـ وعرفت منين انى مصرية !

ـ اللى يعيش فى مصر تمنتاشر سنة مش محتاج حد يعرفه على حد مصرى ؟!

ـ انت عشت فى مصر تمنتاشر سنة !

واتصل الحديث ..

وكان ايزاك رقيقا كالفرنسيين ، فرنسى هو لكنه ولد فى القاهرة عندما كان أبوه موظفا ببنك الكريدى ليونيه .. فى حديثة رنة صدق لا تخطئها أذن غير أنه صدق مشوب بالغموض .. غادر معها الأتوبيس وسار بجوارها حتى البنسيون وأعطاها رقم تليفونه ووضع نفسه تحت أمرها لو أرادت .. ودعته فانصرف دون أن ينظر خلفه . دلفت الى الداخل فلم تلحظ تلك النظرات التى كانت تحيط بها أينما ذهبت، رحبت بها مدام لاروش صاحبة البنسيون وغمزت بعينيها وهى تحـذرها من الرجل الفرنسى الذى يتقن الغزل كما يتقن شرب النبيذ .. تناولت طعام الغداء وصعدت الى غرفتها غير أن السعادة حملتها على أجنحتها بعيدا عن النوم ... حل المساء فهبطت الى الطريق وكان الشانزلزيه هو بغيتها . ها هى الحرية أخيرا بين يديها كاملة ، لا اب ولا أم ولا صبرى يطاردها ليل نهار بعذاب بلا حدود .. جلست فى أحد المقاهى وطلبت قهوة سوداء وسرحت ــ رغما عنها ــ اليه . الى صبرى ، ذات يوم كان يحكى لها عن المطارات وهناجر الطائرات التى يبنيها .. كان يحكى لها عن الجبهة وقواعد الصواريخ . كان يجلسان على النيل عندما سألته :

ــ الا قولى ياصبرى .. مش الكلام اللى انت بتقوله ده سر ؟!

وتلجج كطفـل صغير يحبو ، ارتبك وتضرج وجهــه بالحمرة ..

ــ انت زعلت ؟!

ــ لا .. !

ــ أمال مالك ؟!

ــ اسمعىياعبله ... اللى زيى الناس بتحسده علىاللى هو فيه .. أنا عندى ٣٢ سنة ومدير عام .. أنا باحب

شغلي آه . .انما باتعب فيه ، عارفه يعني ايه مطار سري، عارفه يعني ايه ملجأ لطيارة ثمنهـــا كذا مليون جنيه ، عارفه يعني قاعـــدة صواريخ انا ليل ونهار مفروس فى شغلى ، وعمرى ما اتكلمت مع حد فى الشغل ده .. لكن الواحد ساعات بيحب يفضفض .. افضفض مع مين ان ما كنتش حافضفض معاكى ؟ !

يومها بدا لها صبرى مثل طفل حقيقى .. كان رقيقا .. كان معذبا . كان . كان وحيدا .

ــ بونسوار مدموازيل عبلة !

رفعت راسها وكان وجه ايزاك يطل عليها باسما .

ــ بونسوار مسيو ايزاك !

ــ تسمحى لى أقعد معاكى !

ــ من فضلك !

وجلس ايزاك !

***

صاحت سلوى فى عزت :

ــ عزت . تكونش بتغير من عبلة صحيح ؟

ــ دى مش غيرة يا سلوى !

ــ أمال ايه الكلام اللى انت بتقوله ده !

ــ تعالى نحسبها سوا .. ازاى تقولى ان عبلة انسانة عادية وهى بترفض كل حاجة حلوة بتيجى لها ؟

ــ هى دى عبلة !

ــ قدرى اعتذر لها .. قدرى تعبان !

ــ وهى كمان تعبت أكتر منه . خليه هو يتعب شويه !

ــ طب وصبرى .. ابن خالتك ؟!

ــ عبلة مش بتحبه !

ــ امال بتحب مين ؟ !

كان هذا هو السؤال الذى يشغل بال سلوى .. كانت

تحب عبلة : نعم .. وكانت تعرف عنها مالا يعرفه أحد : نعم .. وكانت معجبة بها : نعم .. غير ان هذا السؤال ظل مطروحا بلا اجابة .. ومنذ أن فعل قدري ما فعله معها ، وهي تتغير ، شيء غريب كان ينمو تحت جلدها . شيء مخيف كان يقود عبلة نحو مجهول لا يعرفه أحد .. ربما كان عزت على حق ، وربما كان مخطئا ، وسواء أكان هذا أم ذاك . فلا شيء يصبح بعيدا عن عبلة .. لا شيء .

التفت الى عزت وكان مستغرقا في مشاهدة التليفزيون :

ـ عزت .. انت عاوز تقول ايه على عبلة ؟!

ـ عاوز أقول ان عبلة اما تطلع في سابع سما .. وأما حاتنزل ..

وقاطعته سلوى :

ـ سابع أرض !

التفت نحوها واعتدل وقال :

ـ ياريت .. كانت تهون !

ليلتها لم تنم سلوى قبل الخامسة صباحا . فما الذي كان يفكر فيه عزت ؟!

***

كانت تسير بجواره وكل ذرة في عقلها تحسب الحسبة .. ولا جواب .

كان صحفيا في احدى وكالات الانباء وكان مسئولا عن الشئون العربية وكان يعرف كل مايجري في باريس عن العرب .. عندما علم أنها ستعود لبعثة دراسية نبهها الى ان مرتب البعثة لن يكفيها لكي تعيش في باريس واذا كان البروفسور أرموند قد قال لها في الصباح ان اللغة نتاج حضارة فها هو ايزاك يقول :

ـ علشان تعرفى فرنساوى كويس لازم تعيشى فى باريس !

سألته عن نفسه فراوغ وزاغ ولم يذكر لها شيئا رغم انها ذكرت له كل شيء . قال لها أنها تستطيع أن تجد عملا فى « الشركة العربية للتصدير والاستيراد » . لكنه لم يذكر لها أنه يعرف فيها احدا .. سألته فجأة :

ـ طب ازاى تعرف كل الحاجات دى ولا تعرفش حد من العرب !

ونظر اليها نظرته تلك الواثقة الغريبة وقال :

ـ انتى نسيتى انى صحفى !

ـ ماهو علشان صحفى لازم تعرف الناس !

ـ أنا أعرفهم انما هم مش لازم يعرفونى !

و .. لقد كان حديثه أقرب الى الواقع وهو يحكى عن الصحافة فى الغرب .. و .. ولقد كان حديثه طليا شائقا وهو يحكى عن متاعب المهنة .. و .. ولقد كان حديثه مثيرا وهو يحكى لها عن تتبعه ذات يوم لزعيم عربى جاء الى باريس سرا لعقد صفقة سلاح لكنه سبق الجميع بالنبأ بعد مطاردة استمرت أسبوعين ..

وعندما ودعها أمام البنسيون لم يطلب منها موعدا للقاء .. لكنه ذكرها بأنها تحمل رقم تليفونه .

لكن عبلة عادت الى القاهرة دون أن تطلبه ودون أن تراه ..

***

فى مساء أحد أيام سبتمبر كان ايزاك يجلس مع ديفيد .. وكان ديفيد قد وصل من تل أبيب منذ ساعتين فقط .. وكان الحديث بينهما يدور حول عبلة كامل .. قال ديفيد :

ـ تحب نتكلم بالعربى ؟!

ـ أحسن علشان أتمرن شوية معاك !

ـ عبلة كامل حاتوصل باريس بكره !

ـ والمطلوب ؟!

ـ الأوامر فى تل أبيب يتطلب تجنيدها بأسرع ما يمكن ... كل التقارير اللى اتقدمت عنها بتقول ان عبله كامل من الممكن انها تكون مفيدة بشكل غير عادى !

ـ علشان علاقتها بصبرى عبد المنعم ؟!

ـ مش بس صبرى .. عبلة .. عبلة .. نفسها مطلوبة للغاية ! ..

***

بعد ذلك بأربعة أسابيع كانت عبلة تسير بجوار ايزاك على شاطىء السين ، كان الخريف يحمل معه بشائر برودة الشتاء القارس .. وكانت الأسابيع التى مضت تحمل فى أحشائها الكثير من التغيرات .. وكانت المناقشة بين عبلة وايزاك تدخل طورا غريبا .. التفتت اليه عبلة قائلة :

ـ ايزاك .. انت قلت لى انك صحفى !

ـ عبلة . مالك ؟!

ـ وطلبت منى انى أديك أخبـــــار عن الطلبة العرب والمصريين !

ـ أنا عاوز أزود دخلك ياعبلة !

ـ سألتنى عن كل حاجة فى حياتى وعرفتها !

ـ مجرد دردشة !

ـ فى الأول كنت عاوز تعرف أى أخبار !

ـ شغلتى يا عزيزتى . أكل عيشى !

ـ وبعدين بدأت تسأل عن أخبار من نوع معين !

ـ الصحفى بيجرى ورا المتاعب !

ـ وبعدين بدأت تسأل عن أسرار !

ـ ودى فيها ايه ؟!

ودلوقتي على الشركة العـــربية ، ورحت وسألت ، ولقيت شغل !

ـ لانك موهوبة !

ـ ورغم كل ده .. عمرك ماقلت لى ايه اسم وكالة الانباء اللى انت بتشتغل فيها !

وساد بينهما الصمت .. ساد تماما . ولم يعد ايزاك يسمع سوى صوت خطواتهما فوق بلاط الشـــارع .. راح يرقب عبلة وهي تسير بجواره .. كانت فى عينيها نظرة غريبة كانت مخلوقة غريبة وعندما راحت تتحدث من جديد كانت وكأنها تتحدث مع نفسها :

ـ سألتنى عن صبرى وعن شغله ...

ـ سألتنى عن المطارات السرية ، سألتنى عن الجبهة !

ـ عبلة .. عاوزه تقولى ايه ؟!

ـ عاوزه أقول انك بتشتغل لحساب اسرائيل !

وتجمدت الابتسامة على شفتيه .. وكاد يشهق وهو يسمعها تقول :

ـ وأنا مستعدة أشتغل معاكم .. تدفعوا كام !



أبدا .. ولا أدق أجهزة التحليل البشرى فى « الموساد » ـ المخابرات العامة الاسرائيلية ـ استطاع أن يتنبأ بهـذا الذى حدث ... لا الكومبيوتر ولا المعلومات ولا التحليلات ولا هذا الحشد من العقول الجبـــارة الذى انكب يدرس ماحدث .. استطاع أن يصل الى تفسير ...

لم يكن التقرير الذى كتبه « ايزاك » من باريس ، تقريرا ... ففى تلك الليلة الخريفية التى عرضت فيها عبلة عليه أن تتعامل مع المخابرات الاسرائيلية لم يستطع أن يكتب شيئا ، لم يكن هناك ما يمكن أن يكتب ... ظل وقتا طويلا بعد أن ترك عبله حائرا ،كان هذا الذى حدث

فوق كل تصوراته ، فلم يجد مايكتبه سوى نص الحديث الذى دار بينه وبينها على شاطىء السين فى باريس .

فى تلك الايام انكب أحد العلماء ، وكان أشيب الشعر مريض الجبهة ، لم أستطع الحصول على اسمه ــ ربما لاعتبارات أمن مصرية !! ــ قد قرأ نص الحديث مرات ، ثم خلع نظارته الطبية وغرق فى التفكير العميق ... كان قد اطلع على كل شيء عن عبله كامل ، ثم خرج بنتيجة مذهلة ، تلك النتيجة كانت تقـــــول : ان عبلة كامل « ظاهرة » !!

بعد أسبوعين خرجت من الموساد تعليمات موجهة الى باريس تقول :

« لابد من وصول عبلة الى تل أبيب ! »

كان هذا هو الحل الوحيد ، أن توضع « الظاهرة » تحت الفحص الدقيق فى تل ابيب نفسها ، فى داخـــــل الموساد وتحت مجهر أعتى خبراء الانسان ، وأحـــدث الاجهزة العصرية لكشف الكذب والصدق ولمعرفة هـذه « الظاهرة » التى لم يسبق لها مثيل فى عالم الجاسوسية.

ودق جرس التليفون فى غرفة عبلة ذات صـــباح ، وجاءها صوت ابزاك ، وكان يتحدث « بالكود » ، وهـــو حديث بالشفرة لا يستطيع فهمه سواها .. وكان يحدد لها موعدا بعد ساعة واحدة بالضبط .

***

فى ذلك الصباح على وجه التحديد ، كان فى القاهرة ضابط مخابرات شاب اسمه « عمر حمدى » . وكان عمر يتذكر مقابلة الليلة السابقة مع « الدكتور » ... كان « الدكتور » كالعهد به بسيطا الى حد الغموض الشديد ، وكان يتحـدث عن نشــــاط الاسرائيلين الذى تزايد فى السنوات الاخيرة فى باريس بالذات .. وكعادته ، لم يقل

الدكتور شيئا عن الموضوع الذى استدعى عمر من أجله .. كان يعلم ان « عمر » ضابط من نوع خاص ، لايقتله فى الدنيا سوى الروتين والنظام والقيود .. وكان اذا ترك لحاله ، تصرف فى حدود الروتين والنظام دون أدنى خلل ...كان يعلم أن عمر «هاو» أكثر منه محترفا ... كذلك ، ففى نهاية المقابلة التى شرب أثناءها عمر كوبا من الينسون سلمه الدكتور مظروفا أصفر كبيرا ، وتبادل كل منهما النظرات ، ثم انصرف عمر !

كان كل مايحويه المظروف شيئا غريبا .. قد يحدث لى أو لك ، قد يصادفك أو يصادفنى دون أن يلفت أنظار احد على الاطلاق .. كان « أحمد » ضابط المخابرات المصرى فى باريس يكتب عن مقابلة جاءت بمحض الصدفة ، بينه وبين الدبلوماسى الشاب عزت حسين ، وكان عزت عريسا حديثا يصحب عروسه الى قمم الجبال للانزلاق على الجليد .. لم يكن هنـاك ما يثير فى عزت وعروسه سلوى ، لكن الذى لفت نظر أحمد ــ وكان صديقا لعزت تقابل صـدفة معه فوق قمة أحد الجبال للاستمتاع بالجليد ــ ذلك الحديث الذى كان يدور بين عزت وسلوى حول صديقة لسلوى تدعى « عبلة كامل » .. ولقد نسى احمد ذلك الحديث بعد دقائق من مغادرته لسويسرا فى طريقه الى فرنسا فى نهاية عطلة الاسبوع .. غير أنه تذكر كل شىء فجأة ، عندما سمع اثنين من المصريين ، كانا يجلسان ذات مساء على أحد مقاهى الشانزليزيه ، وكانا يتحدثان بحماس شديد من « عبلة كامل » !

هو نوع من الحدس لا يستطيع الانسان تبريره على الاطلاق ، غير ان « أحمد » عرف فى صباح اليوم التالى ، ان عبلة تشغل وظيفة سكرتيرة لمدير الشركة العربية للاستيراد والتصدير فى باريس ، وان حيويتها ونشاطها

جعلا منها حديث الناس فى المكتب .. كان كل شيء ، منذ أن تولت عبلة عملهـــا هناك يسير بدقة ونظام جعلا منها نجما يلهج الجميع بالثناء عليها .. الى هنـــا كان الامر طبيعيا للغاية ، لكن غير الطبيعي ان عبلة لم تكن قد قضت فى باريس سوى شـــــهور قليلة ، ورغم هذا كانت كل التقارير التى كتبت عنها فى السوربون ، تقول انها : أكثر من ممتازة .. وفوق كل هذا لم يقتصر الامر عـلى نشاطها العلمى ، بل تعداه الى ذلك النشاط وتلك الحيوية التى تميزت بهما عبلة وسط الطلبة العرب فى السوربون ، وعلى مقاهى الشانزليزيه .. ولم يكن شــكا بحال من الاحوال ، هذا الذى دفع أحمد ـ ضابط المخـــابرات المصرى الذى يشغل وظيفة مدنية فى باريس ـ الى السعى للقاء عبلة . أبدا لم يكن الشك ، فلم يكن حول هذه الفتاة المصرية أى شيء يثير الشـــبهات ، لـــكنه كان حب الاستطلاع !

ولقد تعمد هذا الشاب أن يلتقي بعبلة ، لكنه ـ شأنه شأن هؤلاء الرجال الذين تعودوا أن يقبعوا خلف أسوار الصمت ـ تعمد أيضا الا تلتقى هى به ... وكانت المفاجأة مذهلة .

ذلك انه فى علم المخابرات غير المكتوب ، والذى يكتسب بالتجربة والمران والخبرة المتراكمة عبر السنين ، يوجد نوع من الاسئلة ، أو أسلوب للمناقشة ، يبدو لاشد العيون والآذان تدقيقا ، أسئلة أو مناقشة عادية ، لكنها بالحس وحده ، تظهر أن هذا النوع من الاسئلة من نوع الاسئلة الاستثارية ، التى تستثير السامع فتدفعه للادلاء بالمعلومات فى مجال المفاخرة أو المباهاة أو محاولة التظاهر بالعلم ببواطن الامور ، أو حتى فى مجال الحماس .

كانت أسئلة عبلة من هذا النوع ؟ ..

فكيف !؟ ..

كان الأمر عويصـــــا غريبا مثيرا دون شك .. فان الجاسوس القادر على القاء هذه الاسئلة ، لابد وأن يمر بمراحل تدريبية عنيفة ، تجعل قدرته على التحكم فى القاء السؤال وأسلوب طرحه وحتى نبرة الصـوت ، لا توحى بأقل قدر من الشك ... ولقد كانت عبله قد قضت فترة بسيطة فى باريس ، وكان تدريبها على هذا المستوى ، امرا مستحيلا .

مرة اخرى ... كيف ؟!

وفى حديقة النادى ، وتحت شمس الخريف ، كان « عمر حمدى » يفكر فى عبلة كامل ... ويبدو أنه فى لحظة كان قد توصل الى قرار ، فلقد غمغم وهو ينهض بكلمة غريبة .. قال :

ـ ظاهرة .. ثم انصرف !

***

فى تل أبيب كانوا أمام طريقين .

فاما أن تكون عبلة كامل عميلة للمخـــابرات المصرية ، دربت تدريبا عاليا ..

واما أن تكون .. « ظاهرة » !!

وكان الحل فى وصول عبلة الى تل أبيب .. ولكن ، قبل رحلتها الخطيرة تلك .. لابد من قيامها برحلة الى مكان آخر... رحلة استكشافية الى « القاهرة » ...

وكان هذا ما قاله ايزاك لعبله فى ذلك الصباح ...

ـ عاوزينك تسافرى مصر ، وتحاولى تعرفى معلومات عن محطات الصواريخ بين مصر واسكندرية !

ـ « أو . كى » .

قالتها عبلة وكأنها تلبى دعوة للسينما !

كانت التقارير التى تقدمها عبلة عن الشركة العـربية

للاستيراد والتصـــدير ، مذهلة ، وكانت معلوماتها عن الطلبة العرب واتجـاهاتهم السياسية رهيبة ، أكثر من ذلك ، فلقد دفعت الى « عملاء » ايزاك ، الذين لا تعرفهم ، ببعض الطلبة العرب الذين حملوا الى بيوت الملذات هناك ، حيث يغرقون فى الخمر واللحم الابيض ، وينزلقون من حيث لا يشعرون بكل ما يعرفون من معلومات !

***

هنا وهناك كان الامر غير طبيعى ، هنا وهناك كان الامر يدعو للدهشة والشك ..

أما عبلة نفسها ، فكانت تحيا وسط خضم رهيب من الاحساس بالسيطرة والجبروت والانتصار !

وها هى القاهرة مرة أخرى تحت قدميها .. ومنـذ اسبوع زارها « رمزى » فى باريس ، كان يريد ولا يريد ، فى عينيه نظرة توسل وقد وقع فى حبها حتى قمة رأسه ، وكم تلذذت وهى تركب بجواره سيارة « المرسيدس » الفـــاخرة ، وكم تمتعت وهى تستمع الى موسـيقى « الكاسيت » ، وكم خفق قلبها وهى تسمعه يهمس :

ــ عبلة ... مش نتجوز بقى ؟!

لكنها ابتسمت ، لم تفكر لحظة ، وقالت :

ــ لا .. !!

غير أن صبرى عبد المنعم كان فى انتظارها فى المطار ، وكان صبرى بالذات هو بغيتها هذه المرة !

وكم كانت اجراءات الجمارك معها سهلة ، رحبوا بها ــ على غير العادة ــ ولم يفتحوا حقيبة واحدة من حقائبها الاربع .. كانت قد اشترت كل ما تحتاج اليه أمها ، وكان ابوها قد سافر الى احدى الدول العربية مهاجرا من جحيم الام ... وكان صبرى فرحا سعيدا يقبل يدها بين الحين والحين وهو يهمس :

ــ واحشانی !

وكانت تبتسم .. وكانت تعرف الطـــريق جيدا الى بغيتها ...

ــ صبری .. عاوزه أتفسح .. مصر واحشانی !

واذا كان الملل هو سر القوه ، فها هی تحصل على المال بالزوفة .. واذا اقترب منها أحد فانها تتحداه أن يعثر على دليل واحد ضدها ... مصر أو اسرائيل أو حتى جهنم .. لا يهم ، المهم ان تبقى قوية ، وأن تظل قوية .. هناك ، فوق القمة لا يهجرها رجل من أجل امرأة ، أو من أجل فقر نشأت فيه دون ذنب .. المـــــال هو القــوة الحقيقية يابروفسور ارموند صدقنی ، ومهما قلت عن العلم فمهمته الحقيقية هی زيادة حصيلتك من المال ... فالمال هو الذی يشتری ويبيع ويبنی ويهدم ، وهو الذی يخترع ويبتكر أيضا ...

ــ مالك ياعبلة ؟!

كان فی الطريق من القاهرة الى الاسكندرية ، الطريق الزراعی حيث اللافتات تقول : ممنوع مرور الاجانب .. وكانت تطلق ضحكة ، وكان صبری يستجيب ، هنا مطار سری ، وهنا مطار سری ، فی هذا المطار بنی صبری أربعة هناجر للطائرات ، أما هذا فيقع على بعد ٢٠ كيلو مترا داخل المزارع ، ولقد وقعت فيه حادثة كاد صبری يفقد فيها عمره .

كان يكفی أن تلقی اليه سؤالا بسيطا ، كی يقول ويقول، فتسمع هی وتسمع ، وتختزن وتختزن ...

فی الاسكندرية قضيا يوما رائعا .. أعطته عبلة شفتيها نعم ، لكنها لم تعطه أكثر ..

وفی اليوم التالی عادا من الطريق الصحراوی .. وفيه عرفت عبلة مواقع وحددت فی رأســـها خرائط ، وقال

صبرى الكثير من المعلومات !

وعندما عادا الى القـــاهرة ، كانا يبـدوان فى قمة السعادة ..

لكن انسانا آخر ، فى القاهرة ، كان يبدو تعيسا أشد ماتكون التعاسة .. وكان اسم هــذا الانسان : « عمر حمدى » .. وكانت وظيفته : ضابط المخابرات العامة المصرية .

***

خرج عمر بيقين لا يقبل الجدل .. ان عبلة كامل : جاسوسة !

واذا كان لا يملك الدليل .. فانه تعود الصبر ..

وذات عصر كانت عبلة تجلس مع صبرى عبد المنعم فى احد الــكازينوهات المطلة على النيل ، أما عمر ، فكان جالسا فى سيارته ، بعيدا عنهما تماما ، على الطريق العام، غير أنه كان يسمع كل كلمة يقولانها !! .. فتحت غطـاء المائدة الانيق ، كان ثمة رأس مسمار صغير لا يلحظه احد ولايراه ، وكان رأس المسمار هذا شديد الحساسية ، ينقل كل كلمة وكل حركة وكل صوت مهما خفت ، بدقة شديدة الى سيارة عمر ...

ـ مالك ياعبلة !؟

ـ أبدا ياصبرى ...

ـ مسافرة بكره !

ـ حاوحشك !؟

قال صبرى : « قوى قوى » .. ثم ضاع الصوت فى سيارة عمر .. فلابد أن صبرى وضع يده فوق رأس المســمار .. وكان فى مكانه يستطيع أن يرى صبرى بوضوح وقد أمسك بيد عبلة .

ـ فيه ايه ياعبلة لازم تقولى لى !

وقصت عليه عبلة القصة..ان قوما فى باريس أنقذوها من ورطة وقعت فيها ، ورطة تقع فيها أى فتاة غريبة فى بلد غريب .. هؤلاء الناس لا يريدون مقابلا لما قدموه لها سوى بعض المعلومات ، انهم يعملون من أجل السلام ..

ــ انت بتبنى للحرب ياصبرى .. انت بتبنى دشم وهناجر وقــواعد وصواريخ .. لكن .. هل انت عاوز الحرب ؟!

ساد الصمت .. وتوتر عمر فى جلسته ، انه يريد أن يدفع أى عدد من سنى عمره ولا ينزلق هذا الشاب ، لو أنه عرف قبل اليوم ــ على وجه اليقين ــ ان هذا سوف يحدث لنقله ، لطلب سفره الى آخر الدنيا حتى لا يلتقى بعبلة ... ان كل شىء يتم بسرعة جنونية ، هذا الشاب العبقرى يفقد حياته ووطنه ، يفقد كل شىء من أجل نظرة من عينى فتاة انغرس الحقد فى قلبها حتى نخاع النفس ذاتها ..

ــ عاوزة ايه يا عبلة !

ــ أى معلومات هايفة !

ــ بس المعلومات اللى عندى سرية ، خطيرة !

استكانت عبلة كقطة ، قالت :

ــ طيب بلاش !

وجن جنون صبرى ، ها هى طوع يديه ، ولكن عليه أن يدفع الثمن ..

ــ على العموم انت مش حاتقول لى حاجة ببلاش ، كل بثمنه ! ..

ــ ثمن ايه يا عبلة .. مهما كان الثمن ، دى أسرار البلد ! ..

ــ خلاص . يعنى لمــا نتجــوز ، حانعمل بيتنا منين ، وازاى ؟!

وكانت هذه هى القشة التى قصفت عمر صبرى .. ففى تلك الليلة ، أعطته نفسها لأول مرة وآخر مرة ، فقال نعم ! ..

كان هذا هو الجنون بعينه .. ولابد من استدعاء عبلة كامل الى تل ابيب فى أسرع وقت ! ..

كان ايزاك مذهولا مما حدث .. لقد كسرت عبلة كامل كل قواعد الأمن وقوانينه ..

ـ انتى مجنونة .. ازاى تعملى كده ؟! ..

فى برود ردت عليه :

ـ بلاش تاخد المعلومات .. بسيطة ! ..

ـ عبلة .. فيه حاجة اسمها أمن .. وتدريب .. دانتى كنتى مكلفة انك تجيبى شوية معلومات وبس .. لكن تشتغلى فرازة ، وتجندى صبرى .. ده جنان ، حايبلغ عنك ! ..

ضحكت عبلة وقالت :

ـ صبرى هنا .. فى شنطة ايدى دى ! ..

وبعد لحظات قالت :

ـ على العموم ، أنا ماقلتش حاجة خالص .. واذا حد اتشنق ، أنا اللى حاتشنق يا ايزاك ! ..

بعد أسبوع بالتمام والكمال...كان «عمرحمدى» يقف فى مطـــار « روما » وهو يرتدى بالطو ثقيلا ، وقبعة انجليزية ، ونظارة شمسية سوداء .. وكان يرقب عبلة كامل ، وكانت قد وصلت من باريس فى نفس اليوم ، وهى تتجه نحو احدى طائرات شركة العال الاسرائيلية فى خطا ثابتة .

كان يعرف انها تحمل جواز سفر اسرائيليا ، وكان يعرف اسمها الجديد !!

ثلاثة أسابيع فى اسرائيل ، زارت فيها عبلة كامل ، أحد الكيوبترات ، كمـــا زارت مواقع الجيش الاسرائيلى فى الجبهة المصرية ـ !!! ـ وزارت أيضـا مبنى الكنيست وحضرت احدى المناقشات الحادة !

ثلاثة أسابيع قضتها عبلة كامل فى اسرائيل .. ثلاثة أسابيع تركت فيها علامة غريبة ..

كانت كل أجهـــزة الفحص قد اثبتت ان عبلة كامل ليست عميلة للمخابرات المصرية .. لـكنها ايضا اثبتت انها « ظاهرة » غريبة .. ففى احدى الحفـــلات التى أقيمت لها ، رفع أحدهم كأسا قائلا :

ـ نخب البطلة عبلة كامل ! ..

وشرب الجميع النخب الا هى ...

ـ مدموازيل عبلة .. نحن نشرب نخبك ؟!

ـ لكنى لست بطلة ... انا جاسوسة !

وذهل الجميع ، غير أن عبلة كانت تبتسم ...

وفى آخر لقاء لعبلة مع واحد من كبار ضباط«الموساد»، كان يحضر اللقاء أربعة من ضباط المخابرات الاسرائيلية ... وكان الضابط الكبير يبدو سعيدا سعادة لا حد لها وهو يقول :

ـ صدقينى يا آنسة عبلة .. انك أفضل عندى من هؤلاء الأربعة مجتمعين !!

وكان هذا نصا من الاعترافات التى أدلت بها عبلة كامل بعد القبض عليها .

***

القبض عليها ؟!

هذه قصة واحدة من اعنف قصص الذكاء فى هـذا العالم الغريب ...

كان عام قد مضى .. وكان صبرى قد انزلق تماما ..

أصبح جاسوسا يكتب التقارير بالكربون السرى ويرسل الاشارات اللاسلكية .. القصة طويلة ، وانهيـــار هذا الشاب وحده يحتاج الى صفحات وصفحات، ويوم أعطته عبلة أول ألف جنيه ، أنفق منها عليها قبل أن تعود الى باريس ثمانمائة جنيه .. وعمر حمدى ، هذا الشاب الصبور الذى كان يعلم ان ايراك هناك على الشاطىء الآخر للبحر الأبيض المتوسط يرسم الخطط ويدير ، والذى كان يعلم أن الانتصار يعنى الصبر .. ولم يكن الانتصار هو القبض على عبلة أو صبرى .. ذلك ان الجاسوس ، يوم أن « يعرف » يصبح بلا قيمة بالنسبة للجهاز الذى يقاومه ، انه يوضع ، ليل نهار ، كل لحظة من لحظـــات عمره ، كل همسة وكل حركة تحت التسجيل الدقيق ، هنا كان صبرى مكشوفا تماما بلا قيمة وكل المعلومات التى كانت توضع تحت يده كانت صحيحة ، لـكنها كلها كانت معدة بدقة لا تقبل الشك لحظة ... وهنـــاك كانت عبله قد استأجرت مسكنا فاخرا وعاشت فيه ... الجاسوس يصبح بلا قيمة للجهـــاز الذى يقاومه يوم يكشف أمره ، ويصبح بلا قيمة للجهاز الذى يشأـغله يوم يقبض عليه .

لم يكن هناك خطر من صبرى أو من عبلة ، ولقـــد كان الهدف ، والضربة ، هو ايراك ..

وكم تمنى « عمر حمدى » أن يجرجر رجل ايراك الى القاهرة !

غير أن « الدكتور » ــ كعادته ــ استدعاه ذات يوم ..

ــ أيه الأخبار يا عمر !

وبسرعة أفضى عمر بتقرير مركز ومكثف عن القضية.

بعدها ساد الصمت طويلا . -

ــ فيه حاجة يافندم ؟!

قال « الدكتور » :

ـ اقبض على صبرى عبد المنعم !

لطمـــــة كانت هى . ضربة قاضية لكل الخطط التى وضعها عمر حمدى . أصيب للحظات بذهول .. كان هذا الامر مثل قبضة رهيبة تهوى فوق راسه .. ان القبض على صبرى ، معناه ان عبلة أصبحت طليقة الى الأبد ..

ـ عبلة فى باريس يافندم !

ـ وعبلة لازم تيجى مصر .. باى ثمن !

ـ يا فندم ...

وقبل أن يكمل عمر حمدى قاطعه الدكتور :

ـ ده أمر يا عمر .. اقبض النهارده على صبرى .. وعبلة لازم تيجى مصر فى أقرب وقت !

ـ طب ازاى !

ـ باى شكل !

ساد الصمت تماما تلك الغرفة المتيدة ذات الجدران العالية والزخارف ، والتى كانت ذات يوم مملوكة بالقصر الكائنة فيه لأحد اثرياء اليهود الذين امتصوا دم الشعب لأربعين عاما ، ثم تركوا مصر بثرواتهم الى الخارج ... كان هـــذا الامر ـ الآن ـ يعنى بالنسبة لعمر شـــيئا غريبا ..

ـ امتى يافندم آخر ميعاد لازم تيجى فيه عبلة !

ـ قبل اكتوبر ياعمر .. قبل أكتوبر !

كان هذا الحـــديث فى اليوم الثالث من شهر مارس عام ١٩٧٣ .

وخرج عمر حمدى وراسه يدوى بآلاف الأسئلة .. وكان فى هذا الحديث الكفاية !

***

ـ .. صبرى .. أنا عاوزك تسمعنى كويس ، عاوزك

تفتح لى ودانك ، أنا معنديش لك أى وعد بأى حاجة ..
كفاية انك اعترفت انك أخطأت فى حق البلد وهى فى حالة حرب ، كفاية كل اللى قلته ، وكفاية الأدلة اللى اكتشفت اننا عارفين مكانها من زمان .. الكربون السرى ، الشفرة، جهاز الارسال ... كل حاجه ... كل حاجه !

كان صبرى يجلس ذاهلا من كل شىء منذ أن قبض عليه بمعرفة النيابة .. وكانت النيابة العسكرية قد استجابت لرجاء المخابرات العامة بأن يبقى صبرى فى بيته لا يبرحه .. ولقد تعود رجال النيابة العسكرية الا يسألوا عن الأسباب .. تم كل شىء فى هدوء ، وانهار صبرى واعترف بكل شىء .. وها هو عمر ، شاب دمث الخلق ، يحدثه برقة .

ــ ايه اللى مطلوب منى يا عمر بيه ؟!

ــ عبلة كامل !

وساد الصمت ..

ساد تماما .. ولدقائق زادت على الخمس ثم ينطق أحدهما بكلمة .. بعدها نهض عمر قائلا :

ــ خد وقتك وفكر .. ولما يستقر رايك على حاجة ، ادينى خبر !

ــ أنا موافق .. ايه المطلوب منى ؟ ..

***

جلس ايزاك فى الشقة الفــــــاخرة التى استأجرتها المخابرات الاسرائيلية لعبله كامل فى حى من أرقى أحياء باريس ، وكان يمسك بيده كأســـــا من الكورفوازييه الفاخر ، وقال :

ــ انتى ايه رايك ياعبلة !

ــ رأيى انى اسافر طبعا !

ورغم كل ما كانت تتمتع به عبلة من عبقرية ، الا أنها

كانت تنقصها الخبرة !

فلقد اشتم ايزاك من تلك الرسالة الشفرية التي وصلت .. والتي طلبت من عبلة أن تسافر الى بيروت لتلتقى ، بعد أربعة أسابيع بالمهندس على شاكر ، عضو البعثة الاقتصادية المصرية ، لتتسلم منه رسالة هامة ، اشتم رائحة ليست طبيعية .

ــ انا مش مرتاح للرسالة دى يا عبله ...

ــ ايه السبب .. صبرى بعت رســــالته فى ميعادها بالضبط ، وبيبعت رسايله فى ميعادها بالضبط... تلقاه صور لنا كام خريطة مهمين وبعتهم مع وأحد صاحبه على انها جواب غرامى لى ..والميكروفيلم تحت ورقة البوستة عادى ! ..

جرع ايزاك كاس الـكونياك دفعة واحـدة ، ونهض قائلا :

ــ واشمعنى بيروت ! ..

وضحكت عبلة ...

ــ لأن البعثة دى مسافرة بيروت ! ..

وسار ايزاك الى ركن فى الصـــالون كان يحتفظ فيه برقعة شطرنج ... كانت الرقعة تمثل جانبين ، أحدهما ايزاك .. وكانت قطعة قد تحركت كثيرا وفى كل اتجاه وقد حاصرت قطع الجانب الآخر الذى كان ــ حتى ذلك الوقت فى رأى ايزاك ــ لم يحرك قطعة واحدة من قطعه .. ووقفت عبلة ترقبه وقد استغرق فى التفكير .. ثم امتدت يده لتحرك قطعة من الرقعة الاخرى... وسألته عبلة :

ــ ايه ده ؟!

ــ لو كانت مصر حست بحاجة ..حاتتصرف كده !..

ثم ملأ صدره بالهواء وقال :

ـ لازم ناخذ رى اتل ابيب ! ..

***

جذب « عمر حمدى » الملف السرى من بين يدى وقد كنت مستغرقا فى قراءته وقال :

ـ ده مابقاش جهاز مخابرات... انت عاوز ايه ؟ !...

قلت : « عاوز اللى حصل » !..

ـ أنا مش مرتاح للرسالة دى يا عبلة !

ـ مش ممكن ؟! ..

قلت وأنا أضحك :

ـ لاعتبارات الأمن .. مش كده ! ..

ومال عمر فى غيظ وهو يقول :

ـ انت بتضحك ؟! .. أنت تعـــرف اننا لو مكناش قبضنا على عبلة كامل ، مكانش ممكن حرب أكتوبر تتم بالكفاءة التى تمت بيها ؟! ..

كان عمر حمدى هو الآخر يلعب الشطرنج فى مكتبه بمبنى المخابرات العامة فى القاهرة ، مع مجهول ..

كان هذا المجهول بالنسبة اليه معـــلوما .. كان هو ايزاك .. وقد استغرق فى تلك الايام فى مراجعة رقعـة شطرنجه لساعات .. كيف يمكن أن يتحرك ايزاك ؟! .. وهل تأتى عبلة الى بيروت لتلتقى بالمهندس على شاكر ؟!

***

هبطت احدى طائرات شركة العال الاسرائيلية مطـار باريس ، وكانت تحمل راكبا شديد الاهمية .. وكان هذا الراكب يحمل جواز سفر لا يحمل اسمه الحقيقى .. ولقد استقل هذا الراكب سيارة تاكسى غادرها فى ميدان الكونكورد .. ثم دخل أحد المحلات وشرب فنجانا من القهوة السوداء ، وغادر المحل بعد أن نظر فى ساعته .. لم يكن يحمل حقيبة ، وكان يبدو أنه يعرف باريس جيدا ،

وفى احدى المنحنيات قفز الى سيارة اتوبيس كانت تدور فى المنحنى ببطء ، ثم غادرها عند شاطىء السين ، ثم استقل تاكسى كان يبدو انه فى انتظاره .. وعندما انطلق التاكسى قال السائق :

ـ هل كانت الرحلة موفقة ؟! ..

ورد الراكب الغامض :

ـ لولا بعض الضباط لكان كل شيء على ما يرام ! »

وبعد عشرين دقيقة بالضبط ، كانت عبلة كامل تقدم لهذا الراكب كأسا من البراندى المعتق ، وكانت تستعد لمناقشة الأمر مع ايزاك ..

وقبل أن ينتصف الليل ، نظـر الرجل الغامض فى ساعته قائلا :

ـ لم يبق سوى ساعة على موعد الطائرة العائدة الى تل ابيب ، ولقد وعدت زوجتى بالعودة هذا المساء ، وعلى كل ، فان الأمر الأخير لك يا ايزاك .. انت المسئول عن عبلة ، غير أن رأيى الشخصى ، الا تسـافر عبلة الى بيروت ! ..

***

غير ان ايزاك اتخذ قراره أخيرا ، وبعد أسبوع ، وعلى مسئوليته الشخصية ، بأن تسافر عبلة الى بيروت لتأخذ الرسالة من المهندس على شاكر !!

قال عمر حمدى لأحد معاونيه :

ـ عبلة حاتسـافر .. بس لازم تعدى على جنيف الأول ! ..

ـ اشمعنى يافندم ! ..

ـ اصلها طماعة .. طماعة قوى ! ..

قال هذا ، وطلب من معاونه أن يحجز له مقعدا على اول طائرة الى جنيف .

كانت ساعة الصفر تقترب .. وكانت قطع الشطرنج في مكتب عمر حمدى قد تداخلت الآن تماما .. وبدا أن المعركة محتدمة احتداما شديدا ..

وبعد عشرين ساعة بالتمـــام والكمال ، كان يجلس في مكتب « عزت » بالســـفارة المصرية في جنيف .. وكان الحـــديث الذى أدلى به الى عزت ، بوصفه دبلوماسيا مسئولا ، قد حول وجه عزت الى لون الشمع الأبيض .

ــ أنا عارف أن الصدمة مش عادية يا عزت بيه ، انما انت عارف ان أمن البلد فوق كل اعتبار ! ..

وخرجت الـــكلمات من بين شفتى عزت مرتعشـــة باكية :

ــ يا خسارة .. لكن .. ايه المطلوب ! ..

ــ رمزى .. رمزى السيد ! ..

ــ ماله ؟! ..

ــ فيه احتمال كبير ان عبلة تعـــدى على جنيف قبل ماتروح وتتصل برمزى ! ..

ــ طب ليه ؟! ..

ــ رمزى بيشتغل في الاستيراد والتصدير ولازم عنده معلومات ! ..

ولقد كاد رمزى يفقد صوابه في تلك الليلة .. كان مثل مجنون أطلق من عقاله فراح يهلوس .. اجتاحه احساس طاغ بالذنب .. غير ان « عمر حمدى » استطاع رغم تعبه الشديد وحاجته الاشد الى النوم ، أن يعيد اليه صوابه .. كان كل المطلوب منه ، اذا ســـألته عبلة عن بعض المعلومات بطريقة أو بأخرى ، أن يدلى اليها بمعلومات مزيفة ! ..

ووافق رمزى ..

وذهب عمر الى الفراش... والقى بجسده عليه وأغمض جفنيه .. لكن شيئا ما أطار النوم من عينيه .. لم يكن ذلك الأرق الذى كان ينتابه كلما وصلت احدى العمليات الى ذروتها ، بل كان قلقا غريبا .. قلق ازداد مع دقات التليفون الرقيقة .. رفع السماعة ، فجاءه صوت يعرفه جيدا :

ــ رمزي حاول الاتصـــال بباريس ثلاث مرات .. وبعدين اخذ العربية وطلع على أوتوستراد الغرب ! ..

لثوان تجمدت كل حواس « عمر » .. أيكون قد خدع كل هذا الوقت ، أيكون رمزى واحدا من الشبكة .. والا ، فالى أين هو ذاهب الآن !

بعد اثنتي عشرة دقيقة بالضبط ، كان صاحب الصوت يفسح المكان خلف عجلة القيادة لعمر حمدى ، الذى أطلق للسـيارة المرسيدس ٤٥٠ العنان ... كان مجنونا ... وكان صاحب الصوت بجواره يصرخ :

ــ خاتروح فى داهيه ! ..

ــ هو ده الطريق لباريس ؟! ..

ــ هو ! ..

ــ قبل ماتسافر لازم تأخذ بنزين وزيت ! ..

ــ صح ! ..

ــ فيه محطة فى الطريق ! ..

ــ فيه ! ..

وصرخت عجلات السيارة على أرض الطـريق تنهبها نهبا .. وقبل أن تصل الى محطة البنزين المضاءة ، لمح عمر حمدي سيارة مرسيدس أخرى تغادرها بسرعة .. فصرخ :

هادى عربية رمزى ! ..

ــ هى ! ..

ليلتها ، كادت تحدث كارثة ، عندما اقتحمت سيارة عمر الطريق لتوقف سيارة رمزى ! ..

***

« .. رمزى بك ، الدليل الوحيد على انك عبيط هى دموعك ، وأنا اذا كنت أقـــدر دلوقت آخد معاك اجراء قاسي .. الا انى باخيرك مابين حاجتين .. مصر .. أو عبلة كامل ! ..

حدث هذا فى احدى غرف السفارة المصرية بجنيف ، وكان الوقت فى الثـــالثة صباحا .. وكان رمزى السيد يبكى كطفل . وسؤال واحد يردده بلا توقف : « ليه ياعبلة .. ليه ؟! ..

***

قبل أن تصل الطائرة القادمة من جنيف الى مطـــار بيروت بثلاث ساعات ، أقلعت من مطار القاهرة الدولى ، احدى طائرات شركة مصر للطيران .. ولم يلحظ أحد ان الطائرة كانت خالية ، لم يكن بها سوى ثلاث مضيفات ، اقلهن وزنا كانت تزن تسعين كيلوجراما ، وتحمل عضلات مصارع .. ولم يكن احد يعرف : الى أين ؟! ..

***

فى مطار بيروت كان عمر حمدى يدخل غرفة مدير المطار مع صديق لبنانى ، ليأخذا اذنا بدخول احدى سيارات السفارة المصرية الى أرض المطـــار .. ان طائرة جنيف تحمل راكبة هى قريبة لعمر حمدى ، مريضة بالقلب .. وفى شهامة وافق مدير المطار دون تردد وهو يقول :

ــ تكرم أخى ! ..

وصلت طائرة شركة مصر للطيران الى مطار بيروت قبل عشر دقائق بالضبط من وصـــــول طائرة الاير فرانس القادمة من جنيف... فتح الباب، ووضع السلم ، وبدأت

الاجراءات ، ولم يغادر الطائرة أحد .

***

وصلت طائرة الاير فرانس القادمة من جنيف ، وفتح الباب ، وبدأ الركاب يغادرونها عنـــدما اقتربت سيارة تحمل أرقاما دبلوماسية لتقف بجوار السلم ...

وظهرت عبلة كامل عند قمة السلم .. وراحت تهبط فى هدوء .. وما أن وصلت الى نهاية السلم حتى تقدم منها عمر حمدى :

ـ آنسة عبلة ؟! ..

ـ افندم ! ..

ـ أنا المهندس على شكرى :

واطلقت عبلة من عينيها نظرة كالرصاص .. فابتسم عمر وهو يقدم لها الصديق اللبنانى :

ـ ابن عمى .. يونس السيد .. سكرتير أول السفارة .. قلنا نوفر عليكى الجمارك .. اتفضلى ! ..

وعندما وضعت عبلة قدمها داخل السيارة .. كان ثمة رجل من ركاب الطائرة يسرع الخطا نحوالخارج...وكان يبدو متلهفا وهو ينظر خلفه كل خطوة ... كانت سيارة السفارة المصرية قد اتخذت مسارا غريبا الى قلب المطار .. الى حيث كانت تربض طائرة شركة مصر للطـيران ، التفتت عبلة نحو عمر وقالت :

ـ احنا رايحين فين ؟! ..

ـ مصر ! ..

قالها عمر فى نفس اللحظة التى وقفت فيها السيارة أمام سلم الطائرة المصرية ... وعند نهايته ، كانت مضيفتان تبدوان كجبلين رهيبين تفتحان باب السيارة ..

ـ يالله يا عبلة .. مفيش وقت ! ..

وفى هدوء شديد ، غادرت عبلة السيارة الى سلم الطائرة .. وكان عمر خلفها .. وبعد أربع دقائق .. كانت الطائرة محلقة فى الجو .. وبعد عشر دقائق كان الراكب المتلهف يطلب مكالمة عاجلة جدا لباريس ..

كانت رقعة الشطرنج أمام ايزاك ، وكانت زجاجة الكونياك قد فرغت عندما دق جرس التليفون .. ورفع ايزاك السماعة ، وجاءته مكالمة من بيروت .. وما أن استمع الى الخبر الذى زفه اليه صوت الراكب المتهلف ، حتى انقبضت ملامحه ... وضع السماعة ... ونظر الى رقعة الشطرنج . ثم فتح درج مكتبه ، وأخرج مسدسا صوبه الى رأسه ، وأطلق رصاصة واحدة ، كان دويها مكتوما .. ثم سقط .

***

فتح عمر حمدى باب غرفته بمبنى المخابرات العامة المصرية بالقاهرة وأفسح الطريق قائلا :

ـ اتفضلى يا عبلة ! ..

وما أن خطت عبلة داخل الغرفة حتى صاحت :

ـ هو أنت كمان بتلعب شطرنج ؟!

وما أن أغلق عمر الباب خلفه ، حتى دق جرس التليفون فرفع السماعة :

ـ آلو .. أيوه .. ايه ؟ .. معقول .. خسارة ! .

ثم وضع السماعة .. فسألته عبلة :

ـ فيه أيه ؟! ..

ـ ايزاك ..

شهقت عبلة :

ـ ماله ! ..

ـ انتحر ! ..

ومد يده الى احدى قطع الشطرنج ، والقى بها فى سلة المهملات ! ...

فهـــرســت

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ــ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL



هذا الكتاب

ليس أكثر اثارة من قصص الجاسوسية ، وفي العالم أجمع صدرت قصص كثيرة تحكي مغامرات لجواسيس وضعوا علامات على تاريخ الكرة الارضية . وخاضوا غمار مغامرات غريبة وعجيبة ·· غير أن ما نشر عن هذه القصص ، مهما بلغت دقته ، لازال يحوى في داخله اسرارا لم تذع بعد ، وغالب الظن أنهـــا لن تذاع أبدا ·· ذلك أن الجاسوسية علم قائم بذاته ، علم بلا كتب ، بلا نظريات ·· لأنه يعتمد في الاساس على ذكاء الانسان أولا وأخيرا ·

ويوم التقى مؤلف هذا الكتاب بواحد من رجال المخابرات المصرية لم يكن يعرف شيئا عن هذا العالم المفعم بالأسرار ، كانت نظرته الى التجسس ومكافحة التجسس قاصرة ، وناقصة ·· غير أن هذا العالم اجتذبه تماما وامتصه ، انه نوع من المعرفة لم يخض أرضه أبدا ·· وكانت رحلة ، استغرقت من العمر عامين ، عرف فيها الكثير ، وظل يجهل ما هو أكثر !!

واذا كان هذا الكتاب جهدا متواضعا يقدمه الى هؤلاء الرجال الذين يعملون في صمت ، فانه ـ يقينا ـ يعلم أن هناك من تخصصوا في الكتابة في هذا المجال ، وانهم أكثر قدرة فيه ، على نقل الحقيقة للناس·

١٢ قـرشـــا